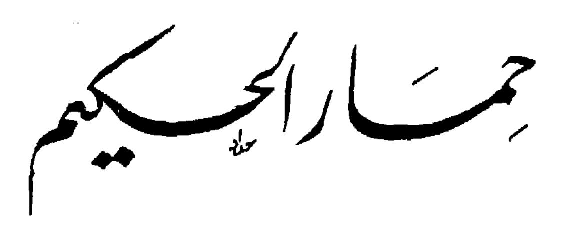


حمار الحكيم

توفيق الحكيم



توفيق الحكيم



حمار الحكيم

قال حمار الحكيم « توما » : متى ينصف الزمان فأركب
فأنا جاهل بسيط ، أما صاحبي فجاهل مركب !.
فقيل له : وما الفرق بين الجاهل البسيط والجاهل المركب ؟..
فقال : الجاهل البسيط هو من يعلم أنه جاهل ، أما الجاهل المركب فهو من يجهل أنه جاهل !..

« أسطورة قديمة »

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ ـــ ترجمة أبا إيبان ـــ ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شيء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

إلى صديقى

الذى ولد ومات وما كلمنى

لكنه ..... علمنى ! ....

١

عرفته فى يوم من أيام الصيف الماضى .. فى قلب القاهرة .. وفى شارع من أفخم شوارعها .. كنت أسير فى ذلك الصباح إلى حانوت حلاق .. وكان الهواء حارًا ممزوجا بنسيم لطيف .. وكان صدرى منشرحا فقد صادفت وجهًا مليحًا ، لغادة شقراء هبطت معى بكلبها فى مصعد الفندق الذى أتخذه منزلا ، مهنيت وأنا أكاد أصفر بفمى وأترنم . وأشرفت على حانوت الحلاق .. وإذا أنا أراه .. أرى ذلك الذى كتب لى أن يكون صديقى .. رأيته يخطر على الإفريز كأنه غزال ، وفى عنقه الجميل رباط أحمر وإلى جانبه صاحبه : رجل قروى من أجلاف الفلاحين .. ووقف المارة ينظرون إليه ويحدقـون ، وبجمال منظره ورشاقة خطاه يعجبون .. لقد كان صغير الحجم كأنه دمية .. أبيض كأنه قُدَّ من رخام ، بديع التكوين كأنه من صنع فنان .. وكان يمشى مطرقا فى إذعان ، كأنما يقول لصاحبه : اذهب

بى إلى حيث شئت فكل ما فى الأرض لا يستحق من رأسى عناء الالتفات ..

ذلك هو « الجحش » الصغير الذى استرعى أنظار الناس فى ذلك الشارع الكبير .. ومنظر جحش فى مثل هذا الحى كاف وحده لإلقاء العجب فى النفوس .. ولكن هذا الجحش كان ولا ريب جميلا فى الجحوش .. فقد كانت عيون المارة تشع بالإعجاب قبل العجب .. ووقفت به سيدات إنجليزيات داخلات محل « جروبى » فما تمالكن أنفسهن من إظهار الحب له .. فلو أنه شىء يحمل لما ترددن فى اقتنائه وحمله كما تقتنى الحلى وتحمل .. وكان صاحبه يريد بيعه فيما خيل إلىّ .. فلقد سمعته يقول لمن أحاط به من مارة وباعة صحف وغلمان ..

ـــ بخمسين « قرش » !..

وكانت قدماى على الرغم منى تسيران بى مع الجمع المحيط بالجحش .. وكانت عيناى على الرغم منى لا تنحرفان عن النظر إلى هذا المخلوق الصغير الجميل ، وإذا بفمى على الرغم منى ينطلق صائحًا :

ـــ بثلاثين « قرش » !..

فالتفت الجمع كله نحوى .. ودار لغط وارتفع كلام . وإذا بى أرى رجلا قد انبرى من بين الجمع ، هو بائع صحف يعرفنى ويبيعنى صحفه ، قد تطوع للعمل باسمى ، فجذب الجحش من يد صاحبه الفلاح الحريص ، وصاح فى وجهه :

ـــ سيدنا البك أمر ، أمره يمشى على رقبتنا !..

فأطبق الفلاح يده على عنق الجحش وصاح :

ـــ ثلاثين قرش !.. هو فرخة رومى !..

ـــ عيب يا جدع انت ترد على البك الكلام !..

ـــ والله ما أفرط فيه بأقل من أربع برايز !..

وحمى الشد والجذب بين الرجلين .. حتى كاد ينخلع فى أيديهما عنق الجحش المسكين .. وانتهى الأمر بانتصار سمسارى المتطوع .. فقد صارت فى يده البضاعة قسرًا .. فالتفت إلىّ قائلا :

ـــ هات يا بك الثلاثين « قروش » ..

فتردد البائع وتراخى ولكنه أراد مع ذلك أن يحتج قليلا فأغلق الرجل فمه بقبضته وصاح :

ـــ اسكت الا « أخرشمك » !.. هات يا سيدنا البك الفلوس واستلم الجحش مبارك عليك !.. بيعة حلال بنت حلال !..

وتقدم نحوى ساحبًا الحمار ليسلمنى قياده الأحمر المتدلى من عنقه .. هنا ذهبت السكرة وجاءت الفكرة .. لقد تمت الصفقة من حيث لا أرجو فى حقيقة الأمر ولا أنتظر .. فقد جرى كل شيء وأنا فى شبه غيبوبة فالثمن الذى حددته بثلاثين قرشًا إنما خرج من فمى دون تفكير أو تدبير .. رقم لفظ على سبيل المداعبة .. فإذا الهزل يصبح جدًا .. ودخل الآن الجحش فى ملكى وحيازتى .. فما عساى أصنع به الآن وأنا داخل حانوت الحلاق .. وأين أضعه ولا منزل لى غير حجرة وحمام فى فندق معروف ؟..

وفوق هذا فجيبى كان خلوا وقتئذ من مبلغ الثلاثين قرشًا .. فلم أكن أحمل ذلك الصباح غير ورقة مالية كان فى عزمى استبدالها بنقود صغيرة فأردت الرجوع فى الصفقة .. فتعذر علىّ الأمر .. ولا حقنى البائع والسمسار بالحمار ..

فقلت منزعجًا مرتبكا وأنا أشير إلى حانوت الحلاق ..

ــ لكن .. أنا داخل أحلق ..

فأجاب بائع الصحف من الفور !..

ــ تفضل حضرتك احلق فى أمان الله .. وأنا أقعد لك « بلاقافيه » بالجحش على الباب فى انتظارك !..

فقلت متململاً حائرًا :

ـــ وحتى المبلغ ..

فعاجلنى الرجل قائلا :

ـــ أنا أفك لحضرتك حالا من عند الدخاخنى .. وسد الرجلان فى وجهى المسالك ، و لم يشفع لى عندهما قول ولا حجة .. و لم يفد اعتذار .. ولزمنى الحمار .. فأذعنت .. وأشرت إليهما فتبعانى به إلى حانوت الحلاق .. ودخلت .. فقلت للحلاق أن يؤدى عنى الثمن من صندوقه .. فأداه .. وانصرف الفلاح ووقف بائع الصحف على باب الحانوت بالجحش .. يطرد المتجمعين حوله من المارة والغلمان وأهل الفضول .. وأنا جالس أفكر فى الأمر وما أنا صانع بعد ذلك بهذا الحمل ، والحلاق يلطخ ذقنى بالصابون ويتغزل فى جمال الجحش ويثنى على رزانته ويتحدث عما يلزم له من الغذاء والخدمة .. ويتنبأ بما ينتظره من مستقبل باهر يوم يغدو كالفرس الأشهب .. وبقية زبائن الحانوت ينظرون إلىَّ وإلى كل هذا ويكتمون ضحكهم ويخفون فى رؤوسهم ما خالجهم فى أمرى من ظنون ، إلى أن فرغت من الحلاقة فنهضت ودفعت الورقة المالية إلى صاحب الحانوت فأخذ ما له عندى .. وخرجت فاستقبلنى بائع

الصحف .. وقدم إلىّ زمام الجحش وهو يقول :

ـــ اطلقه حضرتك يجرى فى الجنينه !..

فقلت كالمخاطب نفسى :

ـــ لو كانت الجنينة موجودة لهانت المسألة ..

فقال الرجل :

ـــ اطلقه على السطح والا فى « الحوش » مع من غير مؤاخذة الخرفان ..

فقلت وقد تخيلت مسكنى فى الفندق :

ـــ وإن كنا نطلقه فى الحمام ..

فقال الرجل فاغرًا فاه :

ـــ الحمام ..؟!

فلم أرد على اعتراضه واستغرابه وقلت له آمرًا :

ـــ اسبقني به على لوكاندة « ...... »

* * *

نعم لقد فكرت فى الأمر فوجدت أن هذا الجحش الجميل ليس أهون قدرًا ولا أقل ظرفًا من ذلك الكلب الذى رأيته اليوم فى صحبة الفتاة الشقراء .. فما الضرر فى أن يصحبنى اليوم فأنزله ضيفا علىّ

يقاسمنى حجرتى حتى العصر ، لقد كنت أزمع السفر عصر ذلك اليوم بالذات إلى ريف قريب فى مهمة غريبة ، يأتى بيانها عما قليل .. فليبق معى إذن إلى أن أذهب به إلى الحقول فأطلقه يرتع فيها ويمرح .. على أن ما شغل بالى هو أمر طعامه اليوم .. لقد كان الحلاق يتحدث فيما تحدث عن غذائه أنه لن يطعم غير اللبن فهو رضيع فيما يرى ، ابن يوم أو يومين وقد انتزع من ثدى أمه انتزاعا ليباع فى شوارع القاهرة .. ولعل ذلك لعسر وقع فيه صاحبه .. فالفلاح إذا جاع باع كل ما يمكن أن يباع .. من يدرى لعل هذا الرضيع اليتيم هو آخر حلقة فى سلسلة شقاء طويل .. ولم أسترسل فى التأمل .. فقد تجمع حولنا الناس من جديد .. فأشرت إلى بائع الصحف أن يسرع بالجحش أمامى وأنا أتبعه عن كثب . فجذبه من رباطه الأحمر فمشى المسكين مشيته الرزينة فى إطراقه وإذعانه ، دون أن يعنى بتبدل الصاحب وتغير المصير .. وجعلت أتأمله من بعيد فى مشيته .. إنها تشبه مشيتى أحيانًا .. إذ يخيل إلىّ فى لحظات كأن رأسى قد ارتفع عن لجة الوجود المنظور إلى فضاء الوجود غير المنظور فأمر بالحياة مذعنا .. لا أحفل بمن معى ولا بمعرفة وجهتى ...

نعم ، إن مشيتى كمشيته أحيانا ، ونظراتى أحيانا كنظراته الجامدة المشرفة على عالم ساكن صاف مجهول ، قد أغلقت دون الآدميين أبوابه السبعة المختومة بسبعة أختام ..

اللهم اغفر لى هذا الغرور ، إذ أرفع نفسى إلى مقام التشبه بهذا الكائن العجيب !..

٢

بلغنا الفندق .. فأومات إلى أحد الخدم الواقفين ببابه .. فأقبل نحوى .. وهو نوبى أمين اعتاد أن يقوم بخدمتى ويعنى بأمـرى واعتدت أن أسخو عليه وأبذل له فى العطاء .. فلما دنا منى أريته الجحش فى يد « السمسار » .. وطلبت إليه همسًا أن يحمله بين ذراعيه ويصعد به « سلم الخدم » ويضعه خفية فى حمام حجرتى .. فحملق الرجل فى وجهى بعينيه .. فأخرجت من جيبى قطعة فضية دسستها فى كفه ، أفاقته من عجبه ، وهيأته لصنع المستحيل .. فأطبق على الجحش واحتضنه وذهب به وهو يتلفت يمينًا وشمالا خشية أن يراه من يوشى به لدى مدير الفندق ..

ونظرت إلى بائع الصحف فرأيته يفرك كفيه فى انتظار الأجر .. فدفعت إليه هو الآخر قطعة فضية لثمها سرورًا .. وانصرف وهو يرفع يديه إلى السماء ويقول :

— ربنا يهنيك به !.. ربنا يبقيه لك !.. ربنا ما يحرق لك عليه كبد !..

وغا عن عينى فى منعطف الطريق .. وأنا أنظر إليه ولا أدرى إن كان يسخر منى أم يقول جدا ..

ودخلت الفندق من بابه الكبير الدائر ووقفت فى البهو قليلا أتصفح وجوه النازلين فيه من سائحين وسائحات ، ثم ارتقيت بالمصعد إلى حجرتى فى الطابق الخامس ، ودخلتها فألفيتها كما تركتها ، كل شىء فيها قائم فى مكانه على أحسن ترتيب .. كتبى وورقى فوق المكتب وملابسى فى الخزانة وفوق المشجب .. و « جراموفونى » وأسطواناتى .. وأوانى الزهر فوق المناضد .. وأصص الورد على حاجز الشرفة .. لا شىء مطلقا يدل على أن فى هذا المكان « دابة ركوب » .. واتجهت إلى الباب الصغير الموصل إلى الحمام الملحق بحجرتى وفتحته وإذا أنا أمام الجحش واقفًا رزينًا مطرقا على عادته .. فتأملته لحظة فى إعجاب ، ثم تركته إلى هدوئه وصفائه ، وعدت إلى الحجرة وضغطت على زر الجرس ثم ارتميت فى مقعدى الكبير إلى جوار باب الشرفة .. وما لبث بابى أن طرق علىّ .. ثم ظهر خادم الطابق ..

فابتدرته قائلا :

— واحد قهوة لى ، وواحد لبن للـ .. وأشارت عينى على الرغم منى إلى جهة الحمام .. ولكننى لم أستطع أن أتم الكلام .. فهذا الخادم ليس عنده بعد علم بالموضوع ..

فقال سائلا فى أدب :

— لمين !..

— ... بعدين تعرف ..

قلتها على عجل وأنا أومئ إليه بيدى لينصرف إلى تلبية الأمر .. وذهب الخادم ثم عاد بعد قليل يحمل صينية جميلة من « الكريستوفر » عليها فنجانان نظيفان وإبريقان لامعان ....ووضع أحد الفنجانين مع إبريق القهوة أمامى ثم وضع الآخر مع إبريق اللبن تجاهى وجذب كرسيا من ركن الحجرة وضعه أمام الفنجان الثانى ، فما تمالكت نفسى من الابتسام .. وخرج الرجل وأغلق خلفه الباب فى لباقة وكل شىء فيه يدل على أنه قد فهم .. فهم ما قد يخطر على بال خادم فندق اعتاد أن يحضر « طلبات » المواعيد اللطيفة ، فى الخلوات الظريفة ..

وما كدت أخلو إلى نفسى ، حتى أسرعت إلى الحمام بفنجان من اللبن وضعته على « سجاد الفلين » تحت فم الجحش .. وانتظرت أن

يرشف هذا الصديق من اللبن رشفة أو رشفتين .. فإذا هو جامد لا يتحرك وإذا عيناه تنظران إلى الفنجان فى غير اكتراث .. كما تنظر عين الزاهد إلى لذات الحياة .. فعجبت وقلت فى نفسى : هـذا مستحيل .. مهما يبلغ زهد هذا الفيلسوف فإن فنجانًا من اللبن لا يعد من الترف فى شىء ، ولا أحسب بعد أن هذا المخلوق الصغير يستطيع أن يتحمل الصوم وقتًا طويلا .. لا بد من علة فى الأمر .. وأعجزنى معرفة السبب .. فأنا حديث عهد بمعرفة طباع هذا النوع الطريف من المخلوقات فإن جل معارفى منحصرة فى ذلك النوع المبتذل الذى يسمونه النوع « الإنسانى » .. وهو على ما رأيت منه لا يأبى مطلقًا التهام ما يقدم إليه مما يؤكل ومما لا يؤكل .. حتى لحم أخيه .. وهو دائمًا جوعان ، عطشان إلى شىء .. وهو لا يصنع شيئًا إلا لغاية ومأرب ، حتى صلاته وصيامه ..ورأيت آخر الأمر أن أسترشد بالحلاق فهو فيما خيل إلىّ عليم بما لا أعلم من هذا الأمر .. فتركت حجرتى وهبطت إلى الطريق سريعًا .. ومشيت إلى حانوت الحلاق .. وإذا بى أعثر « بالسمسار » فما كاد يرانى حتى صاح بى باسما :

ــ إزاى حال « اسم الله عليه » ...

فضحكت وقلت له :

ـــ اسمع يا .. انت اسمك إيه ؟..

ـــ محسوبك دسوقى ..

ـــ اسمع يا دسوقى .. انت مش قلت انه يشرب لبن ؟..

ـــ معلوم يشرب لبن ..

ـــ وإيه رأيك انه مارضاش حتى يلتفت للفنجان !..

فحملق الرجل فى وجهى وقال :

ـــ فنجان ؟..

فقلت :

ـــ أيوه .. طلبت له واحد لبن ..

فقاطعنى الرجل صائحًا :

ـــ طلبت له واحد لبن !!.. هو من غير مؤاخذة سواح من السواحين !!.. دا يا سيدنا البك جحش ابن يومين بالكتير بيرضع من بز امه .. دا لازم له من غير مؤاخذة « بزازة » من الأجزاخانة !...

فأدركت فى الحال مقدار جهلى وغباوتى وقلت :

ـــ آه ، صحيح .. عندك حق !..

وتركته .. وأسرعت إلى أجزاخانة قريبة فدخلتها وطلبت من فورى « بزازة » ..

فسألنى الأجزجى :

ـــ الولد عمره أد إيه ؟..

فارتبكت وقلت :

ـــ والله .. مش ولد ..

فقال الأجزجى :

ـــ البنت ..

ـــ ولابنت ..

فحملق الرجل فى وجهى كالمخاطب لنفسه :

ـــ لا ولد ولا بنت !.. يبقى إيه .. فيه نوع ثالث جديد ما اعرفوش ؟!..

فأردت أن أوفر عليه مؤونة العجب فبادرت قائلا :

ـــ هو فى الحقيقة ..

ـــ آه مفهوم .. مش ابن حضرتك ..

ـــ ابنى ؟!.. طبعًا لا ، مش ابنى ، دا جحش صغير ..

ـــ جحش ؟؟.. آه .. أنا آسف .. لا مؤاخذة !..

وظهر على الأجزجى الحرج وأسرع يحضر لى ما طلبت وقدم إلىّ زجاجة كبيرة فى طرفها ثدى من المطاط وقال :

ــ دى بزازة كبيرة تنفع لجحش كبير ..

لا مؤاخذة !..

فابتسمت وقلت له :

ــ العفو لا داعى للمؤاخذة ..

وأنقدته الثمن .. وخرجت أحمل « البزازة » عائدًا بها إلى الفندق .. وصعدت إلى حجرتى .. فوجدت بابها مفتوحًا .. وذكرت أنى تركته كذلك سهوًا عند ذهابى .. واتجهت من فورى إلى الحمام ، ففطنت إلى أنى نسيت إغلاق بابه أيضًا قبل انصرافى .. وألقيت من فورى نظرة فى أنحاء المكان فلم أجد أثرًا لصاحبى فأسقط فى يدى .. وحرت فى أمرى .. أين وكيف اختفى ؟.. أتراه خطف أم تسرب ؟.. وخرجت إلى بهو الطابق .. فإذا بى أسمع ضحكات رقيقة تنبعث من إحدى الحجرات .. فمشيت نحو الصوت .. فألفيت نفسى أمام حجرة بابها مفتوح .. وأبصرت الجحش واقفًا أمام مرآة طويلة لخزانة ملابس يتأمل نفسه مليا ، وإلى جانبه الغادة الشقراء تضحك عن ثغر يسطع نورًا ..

لم أدر ماذا أصنع .. فلزمت موقفى أنظر ولا أنبس إلى أن حانت من الفتاة التفاتة شطر الباب ، فرأتنى ورأت « البرازة » فى يدى .. فأدركت ونشطت نحوى تقول :

ـــ عفوًا يا سيدى .. أهو ..؟

ـــ نعم يا سيدتى .. هو ..

وأومأت برأسى إيماءة تفصح عن صلتى بالجحش فضحكت وأقبلت علىّ تقول :

ـــ لقد كاد يحدث ثورة فى الطابق منذ قليل ولكنها ثورة لطيفة .. لقد جعل يسير فى البهو بكل اطمئنان ، ويدخل كل حجرة يجد بابها مفتوحا ، ويتجه توًا إلى كل مرآة يصادفها ، فيطيل النظر إلى نفسه .. لقد سمعت قاطن الحجرة المجاورة يلفظ صيحة دهش .. فقد كان أمام مرآته يعقد رباط رقبته وإذا هو فجأة يرى فى المرآة أن بين ساقيه جحشًا ..

قالت الفتاة ذلك وأغرقت فى الضحك .. فضحكت أنا أيضا .. ثم سألتها :

ـــ وكيف استقر به المطاف فى حجرتك ؟..

فأجابت :

ـــ بعين الطريقة .. يبدو لى أنه انطلق من بين قدمى الجار منفزعا

من صيحته ، واتجه إلى بابى ، فدخل علىّ بغير استئذان ، وتأمل صورته فى مرآتى بغير أن يعيرنى التفاتا ..

فقلت :

ــ ياله من أحمق !.. شأن أكثر الفلاسفة !.. يبحثون عن أنفسهم فى كل مرآة ولا يعيرون الجميلات التفاتا !..

فابتسمت عن ثغرها البديع ابتسامة رضا .. وقالت وقد اتخذ وجهها هيئة الجد فجأة :

ــ حقا لست أدرى ماشدة اهتمامه بهذا الأمر ..

فقلت :

ــ لقد نسى فيما أرى شأن جسده وأنكر أمر « المادة » فهو لم يطعم شيئًا حتى الساعة ..

فأشارت إلى « البزازة » فى يدى :

ــ ألم تقدم له شيئا من اللبن ؟..

ــ قدمت له ذلك فلم يعجبه ..

وقصصت عليها ما فعلت ، فضحكت منى كما ضحك السمسار من قبل .. وقالت :

ــ يبدو يا سيدى أنك لم تكن قط أبا ..

فقلت :

ـــ صدقت فراستك يا سيدتى .. ذاك أول عهدى بالأبوه !

فمدت يدها نحو « البزازة » وقالت :

ـــ إذا أذنت فإنى أتولى عنك هذه المهمة .. فإن المرأة على كل أحذق .. بمثل هذا العمل وأجدر ..

ـــ إنها منة عظيمة وفضل منك يا سيدتى .. لا أنساه ..

قلت ذلك وتركت لها الجحش وأداة إطعامه ، وقدرًا من اللبن ، أمرت بحمله إليها .. وانصرفت إلى شأنى حامدًا شاكرًا ..

٣

كانت المهمة التى اقتضت ذهابى إلى الريف ذلك اليوم ثقيلة على نفسى على غرابتها .. ولها قصة يحسن بى أن أوردها هنا تفصيلا : كان ذلك منذ أسبوع عصر يوم اشتد حره ، فاستلقيت على مقعدى الكبير مستقبلا باب الشرفة أستجدى بعض أنفاس نسيم عابر .. وإذا جرس التليفون بقربى يدق فتناولت السماعة بيد مسترخية ، دون أن أتحرك من مكانى وسمعت صوت عاملة التليفون المركزى بالفندق تصلنى بصوت آخر فى الخارج لرجل يتكلم الفرنسية ويعلن إلىّ أنه يطلب موعدًا للقائى ..

فسألته عما يريد فقال إنه مندوب شركة للسينما وإنه يود محادثتى فى شأن يتصل بهذه الأعمال .. فضربت له موعدا فى مساء ذلك اليوم فى بهو الفندق .. فلما أقبل علىّ ، وجدت رجلا فى طور الشباب ، أشقر الشعر ، حليق الشارب أنيقًا رشيقًا حيانى فى

احترام .. وجلس يحدثنى فى طلاقة ولباقه عن شريط سينمائى تصور أكثر وقائعه الريف المصرى ، وتدور حوادثه فى قرية مصرية ، ويقوم بالكثير من الأدوار فيه الفلاحون أنفسهم دون الالتجاء إلى ممثل محترف من الممثلين المصريين ، حتى يستوثق من صدق الصور .. وأن يوضع كل ذلك داخل إطار قصة سينمائية قد تم وضعها بالفعل .. وأن المتولى إخراج هذا كله والإنفاق عليه شركة سينمائية فرنسية .. فقاطعته فى رفق :

ـــ وماذا تريدون منى بعد كل هذا؟..

فقال :

ـــ الحوار ..

ثم أخرج من محفظة صغيرة يحملها نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة باللغة الإنجليزية ثم نسخة أخرى باللغة الفرنسية لسيناريو موضوع ، قدّمهما إلىّ وقال :

ـــ تسهيلا للأمر اسمح لى أبسط القصة فى كلمتين .. وجعل يسرد لى حكاية طويلة عريضة لم أميز لها رأسًا من ذنب .. وأنا بطبعى غير قادر على الإصغاء إلى متكلم أكثر من خمس دقائق ، أهيم بعدها فى وديان وأوغل فى سُحب ، وأنسى وجودى ووجود من معى ..

إنه شرود طالما حال بينى وبين الاستمتاع بالمحاضرات القيمة .. وهو أحيانا يفاجئنى حتى فى دور السينما والتمثيل .. بل وفى مطالعة الكتب ..

ويخيل إلىّ أن الأصل فى فكرى أنه كالغاز الشائع يقتضينى دائما الجهد لجمعه وحصره .. فإذا توانيت قليلا انفرط منى وعاد إلى حالته الأولى ، لذلك لم أفطن للرجل أمامى إلا وهو يوجه إلىّ الكلام وقد فرغ من قصته فيما يظهر ..

— موضوع ظريف .. أليس كذلك ؟..

— جدًا ، جدًا ..

قلتها وأنا أبدى شدة الاهتمام .. على أن صوتى ما كان ينم عن تحمس . والواقع أنى كنت فى ذلك الوقت بعيدا عن التحمس لأى شىء .. فقيظ يونيو وعملى المضنى طول العام الماضى ، والأحداث التى صادفتنى خلاله.. كل أولئك أنهك أعصابى، وجعل منى شخصا لا يصلح إلا للاستلقاء على المقاعد والتفكير فى البواخر وإعداد برامج الصيف فى أوروبا، وافتقار آثار «توسكانينى» و «برونوفالتر». لا ريب أن طلب هذا السينمائى كان يملؤنى سرورًا لو تقدم به قبل شهرين .. فالسينما طالما أغرتنى .. والعمل الذى يعهد به إلىّ أصنعه

من غير شك بأطراف أصابعي .. فما حوار لسيناريو عدد صفحاته لا يربو على العشر ، كهذه الصفحات التي يضعها الآن بين يدى لكن .. من سوء الحظ .. أنى كنت فى ذلك اليوم على حال عجيبة لم أعهد نفسى على مثلها قط يوما ، فلو طلب إلىّ طالب أن أنفخ الهواء بفمي لضقت بذلك ذرعا .. ولقد تجمعت وقتئذ كراهتى وعداوتى وانحصرت فى شيء واحدا اسمه : الكتابة وكل ما يحتاج إلى كتابة .. فكتابة رسالة طامة كبرى .. وكتابة بطاقة مصيبة نازلة .. وكتابة مقال قد يدفعنى إلى ارتكاب جريمة .. فلما طلب إلىّ الرجل آخر الأمر رأيى فى هذا العمل أجبته صراحة بأنى آسف حقيقة لتعذر قيامى به .. فقد انتهى موسم عملى .. وقد حددت موعد السفر وانتهى الأمر .. فسألنى الرجل ..

— ومتى السفر ؟..

— فى أوائل يوليو ..

— حسن جدًا .. ما زال أمامنا شهر ، وهذا يكفينا ..

— مهما يكن الأمر ، فإنى لا أظن فى مقدورى أن أعد بشيء ..

وانفض مجلسنا ، ولم يقنط الرجل وترك نسختيه لأطالعهما ، وهو واثق أن مجرد قراءتى القصة سيبعث فى نفسى الرغبة فى إنشاء الحوار

وانصرف على أن يعود إلى فيما بعد . وحملت أنا أوراق روايته فوضعتها حيث رقدت بما تحتويه من أبطال أبرار أو أشرار ، ما أدرى ، رقادًا لم أوقظهم منه ، حتى وافانى الرجل فى اليوم التالى يحادثنى فى أمرهم مرة أخرى ، ويستفسرنى بعض أحوال الريف .. وأنا أجيب إجابات مقتضبة حينا ، مسهبة حينا آخر ، ولكنى فى كل الأحيان كنت أخفى تبرمى تأدبًا .. فالرجل ظريف .. وهو فيما رأيت حريص على إرضائى واستبقائى كلما أبديت له عذرى .. فلقد عرضت عليه استعدادى لإحاطته بكل ما ينفعه من أخبار الريف على أن يكون ذلك أثناء محادثات كمحادثاتنا تلك ، كلما سنحت لنا فرصة اللقاء .. أما أن أرتبط بعمل أسأل عنه فى ذلك الوقت فهو موقف لا أحب أن أضع نفسى فيه .. ثم أشرت عليه أن يتصل بكاتب أعرف أنه ممن خبروا هذه الأعمال .. فتجهم وجه الرجل وقال :

ـــ إن الشركة ذكرت اسمك بالذات ..

ـــ عجبا !..

قلتها وقد بدا على وجهى من غير ريب إلى جانب الدهش شيء كثير من الرضا .. فقال الرجل :

ـــ إن هذه الشركة هى التى تولت إخراج الكثير من روايات

« إميل زولا » وناشر أعمال « زولا » هى دار « شاربانتييه » لأصحابها « فاسكيل وشركاه » وهذه الدار قد نشرت قصة من قصصك .. هى التى دلتنا على عنوانك عندما جاء ذكر الاحتياج إلى كاتب مصرى لوضع الحوار الريفى ..

هنا بطل العجب .. وذكرت فعلا أنى فى أوائل ذلك العام جاءنى بنفس الطريقة فيما يظهر ـ خطابان لشركتين فرنسيتين للسينما يطلبان منحهما حق اقتباس هذه القصة.. وكان وجه عجبى وقتئذ طريقة علمهما بعنوانى ..

ــ كل هذا جميل ، ولكنه مع الأسف لا يغير من الموقف شيئا ..

قلت ذلك للرجل .. فأطال فى وجهى النظر كأنما دار بخلده أنى أتمنع لشىء فى النفس .. ثم نهض وهو يرجو منى أن أفكر مرة أخرى فى الأمر وانصرف على أن يعود ..

فلما عاد فى اليوم التالى وجدت معه رجلا آخر حسن الهندام قدمه إلىّ قائلا إنه المتولى الأعمال المالية والإدارية الخاصة بهذا الفيلم لحساب الشركة .. ثم أخرجا من المحفظة التى يحملانها خطابات وأوراق وقال لى الرجل الظريف :

ــ نسيت أن أذكر لك أن الشركة فى باريس قد تعاقدت فعلا مع

الكاتب الفرنسى « ... » على وضع الصيغة الفرنسية لحوارك .. ذلك أن حوارك بالطبع سيبقى على أصله العربى فى نسخة الفلم العربية إذا صنعت نسخة عربية .. أما النسخة الفرنسية فإن « ... » يضع صيغتها النهائية بعد أن نرسل له الترجمة الأولية وها هى ذى صورة العقد الموقع عليه منه !..

وقدم إلىّ الورقة فوقع نظرى على رقم المبلغ الذى تقاضاه هذا الكاتب على هذا العمل فوجدته ثلاثين ألف فرنك .. ثم شروط أخرى استلفتت نظرى من بينها هذا الشرط .. أن يعلن عن اسمه على اللوحة الفضية بحروف فى حجم حروف اسم المخرج .. فابتسمت لأمر هذا العالم الجديد علىّ ، العجيب بأفكاره ونزعاته ورغباته !.. ولم يمهلنى الرجل .. فتناول من زميله ورقة أخرى قدمها إلىّ قائلا :

ـــ وهذا هو العقد الذى كنا نرجو أن يتم عليه توقيعك .. فنظرت فى الورقة فإذا هو عقد متعدد البنود مضروب على الآلة الكاتبة باللغة الفرنسية .. فى أعلاه قد طبع اسم الشركة وفى أسفله توقيع مندوبها المخول له سلطة التعاقد .. ونظرت إلى المبلغ المرقوم .. فإذا هو يزيد زيادة ملحوظة عما قرر للكاتب الفرنسى الذى لن يصنع شيئا كثيرًا .. وقد روعى العدل فى حجم حروف الاسم بينى وبينه ، مما

جعلنى أبتسم مرة أخرى ابتسامة يخالطها شيء من العجب والرضا ..
على أن الذى دعانى إلى التفكير قليلا هو البند الأخير .. وفيه تعجل
الشركة بقسط وافر من المبلغ يدفع عند توقيع العقد .. هنا فقط
بدأت انظر إلى الأمر كله بعين الجد محدثًا نفسى : « ليس بينى وبين
أن أقبض مائتين من الجنيهات إلا أن أضع إمضائى ها هنا ؟! .. »

وعندئذ شعرت بسلطان المال .. وأدركت أن المال قدير أحيانًا
على تقرير مصير الأشياء .. حتى فى مسائل الأدب والفكر والفن ..
نعم ولم لا ؟.. لو لم تلوح إحدى دور الموسيقى فى لندن لبيتهوفن
بمبلغ خمسين جنيها لما وضع السانفونية التاسعة !.. إن لم يكن الفنان
محتاجًا إلى المال ليعيش فهو محتاج إليه أحيانًا لينتج .. فالفنان أحيانًا
كالغانية يجب أن يؤخذ بوسائل الإغراء !.. إن المرأة إذا لم تحب من
قلبها فلا بد من إغرائها ببريق الذهب .. والفنان إذا لم يتفجر ينبوع
نفسه لغير شيء ، فلا بد من طرقه بفأس من ذهب ؟.. إنها طبيعة
غريبة لا علاقة لها بالطمع ولا بالجشع ولا بالرغبة فى الترف .. إنما هى
أحيانًا شيء يدخل فى نطاق سر النفس الآدمية ، إن قلب الفنان وقلب
المرأة سيان كلاهما كنز مسحور إن لم يفتح من تلقاء نفسه لأول عابر
فلا بد من أن يحرق أمامه كثير من البخور ..

هذا وحده ما جعلنى أحتفظ فى يدى بالعقد طويلا وأشعر فى نفسى أنى لن أدعه حتى أوقع عليه .. دون أن يخطر على بالى وقتئذ ذلك العمل الذى طلب إلىّ أداؤه ، ودون أن أفكر فى قدرتى على إتمامه فى ذلك الزمن المحدد .. ولم أكن مع ذلك فى حاجة إلى ذلك المال .. ولم يكن قد مضت بعد عشرة أيام على قبض مبلغ آخر فى موقف مثل هذا الموقف : فقد كان تاجر الكتب المعروف الحاج (...) يريد شراء كتب لى .. وكانت الممارسة فى هذا الشأن دائرة منذ شهر بينه وبين المتولى شئون هذه الكتب ، نعم ... فطبيعتى الكسلى قد صرفتنى حتى عن الاكتراث لهذه الشئون .. فانتهى الحال بى أن نصبت لنفسى شبه « قيم » يقوم عنى بمسائل الطبع والنشر والتحصيل والبيع والشراء ، وكل تلك التفاصيل التى حاولت عبثًا أن ألم بها بعض الإلمام .. وقد عرف منى « ولى أمورى » الصدوف عن هذه الأمور ، فلم يعرض علىّ حسابًا قط ولم أطالبه بحساب فحسبه أن يقدم إلىّ المبلغ الذى أريده ، وقتما أريد ، ولا شأن لى بالباقى فهو يعرف بعدئذ كيف يدبر الأشياء مع تجار الكتب والورق . إلى أن كان ذلك اليوم إذ تخطاه الحاج وجاءنى مباشرة فما كاد يقع عليه نظرى حتى صحت به :

ـــ الكلام والحساب مع محمد أفندى ..

فوقف بجسمه الضخم ، ملتفًا فى ثيابه الوطنية الطريفة طارحا على منكبيه عباءته السوداء الثقيلة ، ورمقنى بعينيه الحمراوين اللتين لم أرهما قط يوما فى صحة وعافية ، وقال لى فى لهجته الشعبية الظريقة :

ـــ سبحان الله ؟.. حد يا ناس فتح سيرة كلام ولا حساب ؟.. صلى على النبى يا أستاذ .. واطلب لنا فنجان قهوة سادة !..

فطلبت القهوة ، وجلس الحاج يتحدث فى مواضيع لطيفة خفيفة ، لا صلة لها بما جاء له من عمل .. والحاج محدث ظريف بارع ، لا يمله السامع وإن كانت شهرته الغالبة أنه حاد الذكاء شديد الدهاء .. وهو يفخر أحيانًا بأنه رجل عصامى ، استطاع بعمله وحده أن يجمع ثروة لا تقل عن الخمسين ألف جنيه وأن يسيطر بحسن تدبيره على تجارة الكتب العربية فى العالم العربى كله ، فهو يتحدث عن عملائه فى السند والهند وسيلان وساحل الذهب والمغرب الأقصى والمشرق الأدنى حديث العارف الخبير .. وهو لا يجهل أن له الفضل فى إيصال ثمرات قرائحنا إلى أدمغة الناس فى تلك البقاع ، وإدخال أدباء مصر وكتابها بلادًا ما كانوا يظنون أنهم داخلوها ...

إنه نابليون الكتب ، يفتتح الأراضى النائية ويقدم بجيوش

صناديقه الضخمة وفى أثره الأدباء والعلماء حاملين ألوية الفكر الظافر ..

لبث يحدثنى عن أخبار حجه الأخير وما رآه فى الحجاز ... والحاج يحج كل عام ، ليسأل الله البركات ويسأل العملاء سداد الكمبيالات .. فهو يعمل لآخرته كأنه يموت غداً ويعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ، ومضى فى الحديث حتى أيقن أنى قد غرقت فى الإصغاء وشاهد على وجهى الرضا والابتسام ، وأدرك أنى قد نسيت كل شيء إلا ذلك الحديث الممتع ... عند ذاك دس يده فى صدره وانتزع كيسا كبيرًا .. جعل يخرج منه أوراقا مالية من فئة العشرة الجنيهات طفق يعدها بصوت مرتفع :

— عشرة ، عشرين ، ثلاثين ، أربعين ، خمسين —

فأدركت مراده وصحت به فى حدة وعنف :

— بتعمل إيه يا حاج ! ... قلت لك الكلام مع محمد افندى ...

فلم يلتفت إلَّى ، ومضى يعد النقود وهو يقول :

— إن الله مع الصابرين يا أستاذ ! ... ستين ، سبعين ، ثمانين ، تسعين ، ماية ...

فخشيت سوء العاقبة فصحت صيحة مدوية :

— أرجوك يا حاج ! ... انت عارف أنا أكره الحساب ...

فتركنى أصيح كما شئت ومضى فى إخراج الأوراق المالية وهو يعد:

— ماية وعشرين ، ماية وثلاثين ، ماية وأربعين ، وخمسين ، ستين ، ثمانين ، تسعين ، مائتين ...

فلم أدر ماذا أفعل ، وجعلت أتظاهر بعدم الاهتمام وقلة الاحتفال لما يصنع ، ولكن عيناً من عينى كانت تغافلنى وتلمح النقود على الرغم منى ، وأذنا من أذنى ما كان يفوتها صدى صوته المرتفع بالعد ... وكان كلما مضى فى العد بعد أن جاوز الرقم المائتين أحسست أن مقاومتى تخور ، وأن ثائرى يهدأ ، وأن أعصابى تلين حتى سمعت صوته يقول « مائتين وسبعين جنيه »خد عدهم مرة ثانية » ... ولمحت الكيس فى يده كاد يفرغ إلا من بضع ورقات يريد أن يضن بها ، ويمنع أصابعه من أن تبرزها ... فما تمالكت نفسى وأقبلت عليه بكل قواى ... واختطفت يده مع الكيس ، بأصابعه المدلاة فيه ، وصحت :

— قسما بالله العظيم ، ما تخرج من هنا ومعك صنف الفلوس !

وأفرغت ما كان فى الكيس بين يدى ... فوجدت فيه ثلاث ورقات أخريات وعدد من النقود الفضية فصاح بى :

ـــ طيب بس يا أستاذ .. اترك لى أجرة العربية الحنطور ..

ـــ أجرة العربية الحنطور ثلاثة صاغ ! ...

ودفعتها إليه وهو يقول « لا حول ولا قوة إلا بالله » وأخذ منى رسالة إلى « محمد أفندى » يتسلم بها ما يطلبه من الكتب ... وذهب ، ثم مضى يومان ، وإذا « محمد أفندى » يجيئنى ساخطاً ثائراً صائحاً :

ـــ هو الحاج عملها ؟ ...

ـــ عمل إيه ؟ ...

كتب ثمنها أكثر من خمسائة جنيه يشتريها تقريباً بنصف القيمة ! ...

ثم جعل يقص علىّ خبر مفاوضاتهما السابقة ... ويقول إنه رفض أن يعطيه ما أخذ بأربعمائة جنيه ، وطفق « القيم » يأسف لإصغائى إلى الحاج ... ولإهمالى الرجوع إلى رأيه قبل إبرام مثل هذا العقد وحركته الغيرة على عمله وهو رجل أمين ، وهزته الشفقة بى وهو يعلم أنى أقضى فى أمورى بعواطفى وهى تناقض المصلحة ... فجعل يردد كالمجنون :

ـــ مستحيل ! ... نصف القيمة شيء مستحيل ! ...

فطفقت أنظر إليه وأبتسم ... وأردت أن أهون عليه الأمر فقلت :

ــ صحيح مستحيل ! ... لأجل تعرف أنى أقدر أحياناً أصنع المستحيل ! ...

فقال محتداً :

ــ حضرتك ولا مؤاخذة تعرف تكتب الكتب فقط ... اعمل معروف يا أستاذ ، خليك للتأليف لا غير ..

فضحكت وهدأت من روعه . وأبديت له عذرى وحجتى ، ووصفت له الضعف الذى دهانى أمام براعة الحاج ... فهو قد خدر أعصابى بتلك الأوراق التى جعل يخرجها من الكيس على ملء أمام عينى كما يخرج « الحاوى » الماهر ، من كيسه تلك التعاويذ التى يخدر بها أعصاب الثعابين ...

٤

أمضيت العقد وقضى الأمر ... وجعل ذلك الرجل الأشقر الأنيق يختلف إلىَّ كثيراً ... ولم أعرف على وجه التحقيق وظيفته فى ذلك العمل ... فهو كما فهمت مخرج ذلك الشريط أو المنوط به إدارة أعماله الفنية ... وعلى هذا الاعتبار ، رأى أن أخصص له وقتا نجتمع فيه فحددت له بين الرابعة والسادسة من عصر كل يوم ، وهو الوقت الذى يذهب عادة فى الاستلقاء على المقعد الكبير ... فكان يأتى فى هذا الموعد ، ونتجاذب حديثاً بسيطاً هيناً فى شئون القرية المصرية ... أساهم فيه بنصيبى من الكلام أنا بين النوم واليقظة ... فقد كنت قد دعوته إلى الاجتماع فى شرفة حجرتى حيث النسيم ينشط الفكر بدلا من بهو الفندق وقاعات استقباله حيث يشتد الحر فى تلك الساعة ويقل الهواء ... وبهذا كنت ألزم مقعدى ولا أغير عادتى ... على أن فتورى كلما بدأنا الكلام فى مسألة الحوار لم

يتغير ... وجهلي المطبق بتفاصيل القصة التي سردت عليَّ مراراً لم يبرح وكسلي عن مطالعة « السيناريو » حتى النهاية لم أجد له دواء ... ومضى أسبوع على هذه الزيارات والأحاديث ... ولم نصنع شيئاً ... وخجلت آخر الأمر من موقفي ومن ظرف المخرج وصبره فقلت له ذات مرة ، وأنا أغالب إغفاءة دهمتني في يوم قيظ وهو أمامي يحلل لي شخصية بطل من أبطال قصته :

ـــ أرجو المعذرة ... إنك لا شك قد يئست مني .. كما كدت أيأس من نفسي ! ...

فأجاب في ابتسامة :

ـــ أنا أيأس ؟! .. المخرج الذي ييأس لا ينبغي أن يسمى مخرجا ... ما صناعة السينما إلا صبر طويل ... كلا لا تخش شيئاً ... إني لن أيأس منك .. كل ما في الأمر أني محتاج إلى شيء من الوقت .. إن المخرج يجب أن يبدأ دائماً بنسج الجو الذي يغمر فيه ممثليه وأعوانه ... ينبغي أن يسير بهم خطوة خطوة إلى عالم القصة وزمانها ومكانها ... ثم عليه بعد ذلك أن يخضعهم خضوعا خفياً إلى إرادته ، كما يحدث في التنويم المغناطيسي ...

فقلت له وأنا أتثاءب على الرغم مني :

ـ حقيقة ، ها أنت ذا منذ أسبوع تأتى كل عصر لتنومنى ! ..

فالتفت إلىّ فى الحال وقال باسماً :

ـ تقصد أى نوع من النوم ؟! ...

ـ معذرة ... إن قصدى بالطبع ...

ـ لا بأس .. لا بأس ...

قالها ضاحكا ثم مضى يقول :

ـ قد ننشط أكثر من ذلك لو تركنا هذه الحجرة ووضعنا أنفسنا فى المكان الذى ينبغى أن تدور فيه القصة ...

ثم أخبرنى أنهم قد تخيروا بالفعل قرية صغيرة فى طريق البدرشين على بعد نحو نصف ساعة بالسيارة من القاهرة ... وأنهم استأجروا فيها منزلا جميلا من طابقين يملكه أحد الأعيان ، وهو الآن خال ... وقد أرسلوا من أعده إعداداً مقبولا حتى يصلح مركزاً عاماً لأعمال الشريط فى الريف ، وقال إنه لا بد له من أن يقيم هو نفسه أكثر أيام الأسبوع فى ذلك المكان حتى يغمر نفسه فى جو الريف ، وينتقى مواقع القصة ، وينتخب الأشخاص الصالحين من بين الفلاحات والفلاحين ... ويجرى أبحاثه التمهيدية الخاصة بزوايا التصوير ... ثم ختم كلامه قائلا :

— لو رافقتنا ولبثت معنا فى هذه القرية ...

فما تمالكت نفسى ... وقلت من فورى :

— هذا محال ... لدى عملى فى القاهرة ولا أستطيع التخلف يوما ...

فأطرق الرجل أسفا ... ثم أراد أن يجد لذلك حلا فعرض أن يجعل سيارة تأتى وتذهب بى إلى القاهرة كل يوم ... على أن أمضى معهم هناك أكثر الوقت ... وجعل يؤكد لى أن أسباب راحتى فى ذلك المنزل الريفى موفورة ... وأنهم خصصوا لى أجمل الحجرات وذكر لى أن مصور « الكاميرات » وزوجته مقيمان فى ذلك المنزل منذ استئجار وأنهما سعيدان كل السعادة فى ذلك المكان ...

ومضى فى ذلك القول ... وأنا لا أريد أن أسمع ما يقول ... فإن ذكر الريف والمبيت فى الريف يزعجنى منذ أن قضيت فيه أعواما لا تنسى من حياتى .. ان الصور التى أحملها لحياة الريف مؤلمة أشد الألم ... ولئن كنت قد أحببت كثيراً روح الريف البريئة ونفس الفلاح السمحة الكريمة ... فإنى كرهت وأكره مظاهر الريف القبيحة وحياة الفلاحين القذرة ... فقلت للرجل :

— ... لا لزوم لوجودى معكم ... يكفينى نسخة القصة

أمامى ... وأنا أضع حوارها هاهنا على مكتبى ... ولكن الرجل مضى فى إطراقه ... وأدركت من موقفى أن شيئاً آخر غير الحوار يعنيه من أمرى وأمر وجودى بقربه دائماً : هى تلك المعلومات والتفسيرات لأرض وناس يجهلهم ، والمشورة الخبيرة التى يظن أنى أستطيع أن أمده بها فى كل مرحلة من مراحل هذا العمل ... ولقد انتهى به الأمر أن أشار إلى ذلك إشاره صريحة ، وحزن لموقفى .. وطلب إلىّ أن أعينه فى عمله بقدر ما أستطيع ... لا للاتفاق الذى يربطنى بهم ، بل للفن ، وللصداقة التى بدأ يحسها نحوى ...فأثر قوله فى نفسى ... وطفقت أفكر فيما يمكن عمله فعرضت عليه أن أمضى ليلة الجمعة وصباح الجمعة من كل أسبوع معهم فى ذلك الريف ... وأن يراسلنى أو يخاطبنى بالتليفون عن كل ما يعن له خلال الأسبوع ، فقبل ... وسألته عن موعد الرحيل ...

فقال :

ـــ إذا شئت فمن الخميس المقبل ..

أى فى عصر ذلك اليوم الذى قابلت فيه الجحش ... وهكذا خطر لى أصحب معى ذلك اليوم إلى الريف ذلك الرفيق الصغير ...

٥

تركت الجحش مع الغادة الشقراء مطمئنا واثقا أنه قد وضع بين يدين رحيمتين زقيقتين ، أتمنى لو أوضع أنا نفسى بينهما ... على أنى غاليت بعض الشيء ودفعنى بغضى لتحمل التبعات ، فوطنت العزم على الهروب من وجه الفتاة حتى موعد الرحيل فى عصر اليوم ، خشية أن ترد علىّ وديعتى قبل ذلك ... فأضطر إلى حمل همها ، وأنا أضيق بحمل هموم نفسى .. فتركت الفندق ... ورأيت أن أتغدى فى مطعم بالمدينة ولا أعود إلا فى الوقت المناسب ...

ووافت الساعة الثالثة فآويت إلى حجرتى ، وما كدت أستقر فى مقعدى حتى دق التليفون يعلن قدوم المخرج ، فدعوته إلى الصعود ، فصعد ، وإذا هو فى ملابس الرحلات : ذلك البنطلون الكاكى القصير والقميص القصير الأكمام ، والقبعة الكبيرة المصنوعة من الفل ... وابتدرنى قائلا :

ـــ كل شيء مهيأ للرحيل ... والسيارة على باب الفندق فى الانتظار ...

فنهضت ونظرت إلى هيئتى فى المرآة وقلت :

ـــ منظرى بينكم هكذا كالنغمة « النشاز » ... !

ـــ اصنع مثلى ! ...

ـــ أين لى الآن بهذا الزى ...

ـــ تشتريه فى الطريق ...

ـــ هلم ! ...

وحملت فى الحال حقيبتى الصغيرة وكنت قد أعددتها وجهزتها فى الصباح بما أحتاجه لقضاء ليلة فى الخارج ، وقرعت الجرس أطلب خادم الطابق للنزول بها ... فما أن حضر حتى ذكر لى أن الآنسة الشقراء قد قلبت الفندق رأسا على عقب بحثاً عنى ... وأنها تسأل عن حضورى فى كل لحظة فأدركت السبب ...

والتفت من فورى إلى المخرج قائلا :

ـــ لو سمحت أن أصطحب معى صديقاً عزيزاً ..

فأجـــاب المخرج وكان قـــد سمع الخادم يذكـــر كلمـــة « المدمزيل » ...

— بالطبع — إن حجرتك فى منزل الريف تتسع إذا شئت لسريرين ! ..

وابتسم ابتسامة ذات مغزى ... ففطنت لمراده ... ووجمت قليلا ... ثم بادرت أقول :

— يحسن بى فيما أظن أن أقدم إليك هذا الصديق ... ثم أستأذنته لحظة فى الذهاب إلى الحجرة المجاورة ... فجلس على المقعد الكبير ينتظر عودتى ... واتجهت مع الخادم إلى حيث الغادة ... فطرقنا بابها فى رفق ... ففتحت ... وما أن رأتنى حتى صاحت بى باسمة :

— أخيراً ظهرت ! ... لقد كدت أيأس من ذلك الرجل العجيب الذى ترك جحشه واختفى ! ...

— معذرة يا سيدتى ... إنما أردت أن أمتع جحشى بعطفك أطول وقت ممكن ! ...

فابتسمت وقالت فى قلق وحزن :

— لم أستطع مع الأسف أن أصنع له شيئاً ... وقد سألت عنك لأخبرك أنه رفض كل الرفض أن يشرب اللبن بهذه الطريقة أيضاً ... لا بد فيما أرى من أن يرضع من ثدى حمارة ولدت حديثاً ... إنى أرثى لهذا المسكين ! ... إنه سيموت حتما من الجوع إن لم يتدارك

الأمر سريعا ...

فقلت من فورى :

ــ سأدبر له ذلك فى الريف ... ومن حسن الحظ أنا سنرحل الساعة ...

قلت ذلك وأنا أبحث بعينى عن الجحش ، فأبصرته كما تركته أمام مرآتها الكبيرة يتأمل نفسه دائماً فى صمت تأملا عميقا .. فقلت لها :

ــ أتأذنين لى فى الانصراف بهذا « الفيلسوف » ! ...

فقالت باسمة :

ــ حقا ياله من فيلسوف ! ...

فقلت وأنا أتقدم إليه :

ــ أشكرك يا سيدتى بالنيابة عنه ... وبالأصالة عن نفسى على حسن ضيافتك ... وأخشى أن يكون قد أثقل عليك كما يثقل الفلاسفة أكثر الأحيان على الغيد الحسان ...

فقالت وهى تسلمنى زمامه :

ــ على النقيض لقد قضيت فى صحبته وقتا لطيفا ... « جود باى»!...

وأشارت بيدها إشارة وداع ظريفة للحيوان الصغير وتركتها ...
ودخلت به على المخرج قائلا :

ـــ أقدم إليك صديقى ...

فنهض الرجل فى الحال والتفت فوجد الجحش ... فدهش ثم ابتسم ، ثم ضحك مسروراً معجباً ... وأقبل عليه يمسح رأسه الصغير بكفيه ... ويقول :

ـــ مرحباً به من رفيق ! ... لا شك أنه مصدر وحيك ...

ـــ أرجو ذلك ...

ـــ أطوارك تدهشنى ... ما اسمه ؟ ..

ـــ لم أطلق عليه بعد اسماً من الأسماء ... لكننى أحب لو دعوته « الفيلسوف » فصاح الرجل :

ـــ أصبت ما من اسم يصلح له حقا غير هذا .. هلم أيها « الفيلسوف » ! ...

وأراد الخادم أن ينزل به من سلم الخدم فأبى المخرج إلا أن ينزل معنا .. وقاده بنفسه وتقدمنا به إلى المصعد وهبطنا به إلى بهو الفندق أمام الجميع .. واخترقنا المكان إلى الباب الدائر وأعين الحاضرين ترمقنا فى عجب شديد ... ولمحنا مسيو « ... » المدير ... فلم

يصدق عينيه : جحش يسير على رخام بهو الفندق .. هذا محال ..
ولم يدر ماذا يصنع ... فعاجلته بابتسامة وانحناءة ، والتفت إليه
الحاضرون من سادة وسيدات فى ابتسام وضحك وسرور ..

فما تمالك المدير أن ابتسم مثل الجميع .. وأسرعنا نحن إلى
الخروج ... فوجدنا سيارة كبيرة فيها سيدة فى مقتبل العمر رشيقة
مليحة ، لكنها تضع على عينيها منظاراً ويدل مظهرها على النشاط
وحب المخاطرة والرغبة فى الانصراف إلى العمل . وهى ترتدى ثياب
الرحلات .. ثم رأيت فى مكان القيادة من السيارة شابا مفتول
العضلات ، قوى الجسم ، فى ملابس الرحلات أيضاً ... قدمهما
إلىَّ المخرج قائلا إنهما مساعداه ... وقد استقبلانا بالترحاب وخصا
بعنايتهما « الفيلسوف » حتى كدنا نحن نُهمل إهمالا مهينا ...
وأفسحت « المساعدة » مكانا أمامها للرفيق الصغير ، فوقف فى
ذلك المكان من السيارة وأطل برأسه خارجا ... واتخذ كل منا
مقعده ... وانطلقنا حتى بلغنا شارع فؤاد ... فوقفنا أمام متجر
كبير ، أبتاع منه ملابس كملابسهم ... ونزلت فاشتريت ما أردت
وعدت فوجدت الزحام شديداً حول السيارة ، والمارة متكدسين فى
حلقة كبيرة ينظرون إلى الجحش وهو يطل عليهم برأسه ...

وجاء عسكرى المرور فشتت شمل الناس ، وأنقذنا منهم وصاح فيهم :

يالله يا جدعان انفضوا ! ... جرى إيه ؟ ... عمركم مالقيتم حمير راكبة « أوتمبيل » ؟! ...

فالتفتنا إليه من قلب السيارة وقلنا :

— متشكرين ! ...

وانطلقنا إلى الجيزة ثم إلى الطريق الزراعى المتجه إلى البدرشين ...

٦

لم يكن سيرنا متصلا ... فلقد كنا نقف فى الطريق لحظات ، كلما استرعى التفات المخرج منظر طريف ... وقد راقته كثيراً شجرة جميز ضخمة يجرى فى أصلها جدول يسبح فيه بط وأوز ، فأخرج آلة تصويره وسجل هذه الصورة قائلا إن هذا المكان خير إطار وضع فيه موقف من مواقف القصة حيث يلتقى البطلان أمينه الفلاحة ومهدى الفلاح ... فقلت له إذن هذا المكان بعيد عن القرية التى ينبغى أن تقع فيها الحوادث ... فقال :

ـــ وماذا يهم ... إنا نلتقط مناظرنا حيث نشاء ثم نلصقها فيما بعد حيث نشاء من الشريط :

ـــ ولكن هذا مخالف للحقيقة ...

ـــ هذا بالطبع مخالف للحقيقة الجغرافية إذا شئت ونحن فيما أظن فنانون لا مهندسو مساحة ، وكل ما يعنينا هى الحقيقة الفنية ...

صدق هذا الرجل ... إن الحقيقة الفنية هى وحدها التى يجب أن تعنى الفنان ... وهذه « الحقيقة » كل قوامها تخير الصور وتنسيقها تنسيقاً يؤدى إلى ظهور المخلوق الفنى الكامل ، ذى الطابع الفريد والشخصية المستقلة والروح الجديد ... ولا يهم بعد ذلك كيف جمعت العناصر ... وخطرت لبالى عند ذاك كلمة « موليير »إذ اتهموه بجمع مواد أكثر قصصه ممن سبقوه أو عاصروه من قصاصين ، لقد أقر بذلك ... لكنه قال : « إنى آخذ ما ينفعنى حيثما وجدته » ... وذكرت ذلك لصاحبى فقال :

ــ إن هذه الكلمة بدون ريب شعار كل مخرج ...

وكل فنان على الإطلاق ... من روائى وموسيقى ومصور ومثال وسينمائى إلخ .. لأن فيها يستقر معنى « الحقيقة الفنية » ...

ومضينا نتحدث هكذا ، حتى أشرفنا على القرية التى إليها نقصد ... وهى تقع على يسار هذه الطريق الزراعية التى نسلكها ... وقد شاهدناها عن بعد ، يكاد يخفيها النخيل ... وعرجت السيارة ثم هبطت ممراً ضيقاً من الأرض يوصل إلى القرية ... وسارت على مهل بين أكوام السماد والقذارة .. وطلعت علينا الكلاب نابحة كما طلعت أسراب الصبية من صغار الفلاحين فى

أطمارهم وذبابهم الذى يأكل أهداب عيونهم ... ووقفت السيارة فى مكان لم تستطع بعده تقدما ... فقد ضاقت المسالك .. و لم تتسع إلا للقدم العابرة .. فهى حارات ملتوية ، بل دهاليز بين مساكن كأنها أوكار الوحوش ... ونزل الجميع ... وألفينا فى استقبالنا مصور الكاميرا وزوجته مع بعض الموكلين بأمر المنزل من عمال الشركة والخدم ... فحملوا الأمتعة الخفيفة التى معنا ... وأنزل الجحش بعناية الآنسة المساعدة وإشرافها ..

فبادرت أسأل عن وجود حمارة ولدت حديثاً فى القرية ... فقال أحد الصبيان المجتمعين :

ـــ عند أبويا سعداوى حمارة والدة ! ...

ـــ فين هو سعداوى ! ...

ـــ جارنا ...

فنظرت ملياً إلى هذا الصبى الشاحب الهزيل وذكرت ما قاله أحد أطبائنا الباحثين : ما من صبى فى ريف مصر لم تنهش جسمه الأنكلستوما والبلهارسيا .. وهذه العلل بالذات لها فعل يصيب العقل أيضاً ... فيهبط مستوى الإدراك ... وتنطفىء شعلة الذكاء ...

ولم يعر خدمنا كلام الصبية التفاتاً ... فقد رَأوا أن يحملوا الجحش إلى دار العمدة وهو يصرف الأمر . وقد كانت جهة الإدارة قد أوصت العمدة بالضيوف الأجانب خيراً ... ولقد علمت أن مأمور المركز ومعاونه قد علما أننا حاضرون اليوم فأخطرا العمدة بعزمهما على المجيء للترحيب بنا ... ولكن المخرج الفطن أدرك مرادهما فقال لى باسماً :

— إنهما لا شك يحسبان أننا سنديرأعمال الشريط ونلتقط تمثيل الممثلين ... فأرادا ألا تفوتهما فرصة المشاهدة ! ...

وتركنا السيارة فى حفظ بعض الخفراء النظاميين وسرنا فى تلك الأزقة والدهاليز ، بين تلك الدور ... يتبعنا الصبية المرضى ، الكلاب الجربى ، ويقف لمرورنا الرجال المنهوكون الجالسون ، يجرعون الشاى الأسود على المصاطب ... وتطل من خلف الأبواب رؤوس النساء المعفرة بدخان الأفران وهن يخفين أسفل وجوههن بطرحهن السوداء .. وأشرقت علينا فتيات الريف وحسانه من فوق الأسطح وقد تلطخت أكفهن بروث البهائم وانشغلن بنا قليلا عن صف « الجله » ! ...

إنه الريف القذر الذى أعرفه دائماً .. ولا فائدة ترجى منه ، ولا

شيء اليوم غير الأسف والحسرة والمرارة ... وندمت على المجيء ... وغمرتني الكآبة ... والتفت إلى زملائي فوجدت البشر والسرور والإعجاب يطفح من وجوههم والمخرج يهز رأسه ويقول لمساعدته :

— انظري .. جميل ... بديع ... كل هذا جميل حقا وبديع ! ...

فجعلت أحملق في عيونهم المفتوحة الدهشة ، ثم إلى مرامي أبصارهم ومواضع هذا الجمال والإعجاب والإبداع الذي يقولون عنه .. فما وجدت شيئاً واحداً يجوز أن يطلق عليه نعت من هذه النعوت ... وأبصر المخرج فتاة قذرة تخرج من بين الطين وحطب الأذرة فوق سطح إحدى الدور وقد خرجت معها قطة ضالة نافرة .. وكلاهما قد أصاب وجهه الطين والقذر ... وكلاهما قد بدت عليه مظاهر المخلوقات الدنيا ... فسدد الرجل آلة تصويره إلى هذا المنظر راضياً مسروراً ... فقلت له حانقاً :

— أهذا شيء جميل ؟! ...

فصاح :

— بلا شك ...

— هذه المخلوقات المسكينة القذرة ؟ ...

ــ إنها أجمل « فنياً » من مخلوقات ترتدى ثياب السهرة فى حفلة راقصة بقصر بطرسبرج الإمبراطورى ! ...

ــ « الجمال الفنى » ! ..

ــ بلا شك ...

ــ الحقيقة « الفنية » لا علاقة لها كذلك بنظافة ولا قذارة ولا فضيلة ولا رذيلة ، ولا تأخر ولا حضارة ! ...

ــ بلا شك ...

لم أرد أن أمضى معه فى حديث من هذا الطراز ... فلزمت الصمت ... واكتفيت بأن أراقبه وألاحظ كيف ينظر إلى الأشياء ... ولقد عجبت حقاً أول الأمر لأسلوب تفكيره ... إنه لا يتصور الأشياء بعقله ... ولا يفكر بذهنه ... إنما يتصور ويفكر بعينه ، حاسة البصر عند هذا المخرج هى كل شىء على وجه التقريب ... لقد مررنا « بجرن » قامت فيه أكوام من القمح ووقف فيه فلاحان كل منهما يحمل « مدرة » يدسها فى كوم القمح ويرفعها فى الهواء ليفصل الحب عن « التبن » فيتناثر التبن فى الفضاء تحت وهج الشمس فيحدث صورة ، التقطتها عين الفنان السينمائى فصاح معجباً :

ـــ مطر من الذهب ! ...

فنظرت كما نظر .. فإذا أنا أرى حقيقة أن « المدرة » فى يد الفلاح تثير فى الفضاء شيئاً كأنه الدنانير المتساقطة ... وسجل صاحبى هذا المنظر بآلة التصوير وهو يقول لى باسماً :

ـــ إذا أردت أنت أن تعبر بقلمك عن هذا المعنى فإنه تكفيك « عبارة لغوية » قوامها الكلمات ، أما أنا فأحتاج إلى عبارة سينمائية قوامها المرئيات ! ... وهذا هو الفرق بينى وبينك !

وأعجبنى قوله ، فسكتُّ ... وجعلت أفكر لنفسى وأقول : لو أننا نحن الكتاب نستخدم أبصارنا بل كل حاسة من حواسنا هذا الاستخدام ، فأى صور وأى حقائق يمكن أن نبرزها للناس ... ولكن الكتابة فى نظر أكثر الكتاب عبارات لغوية جمعت فى خزانة الذاكرة ليستخرج منها وقت اللزوم ما يؤدى إلى مجرد الإبانة عن القصد ... ينبغى أن يكون الكاتب موهوباً حقيقة ، ليتطلب من الكتابة شيئاً أكثر من ذلك ... من هذه الناحية أفادتنى صحبة المخرج ... وشعرت لأول مرة بالرضا عن هذه الصحبة ...

وبلغنا أخيراً المنزل الذى أعدّ لنا ... فإذا هو قائم وسط بيوت الفلاحين ، كما يقوم العمدة الموسر بعض اليسر بين رجاله العراة ،

دون أن يتميز عنهم كل التميز من حيث الذوق والطبيعة والإدراك ... فهذا المنزل رحب ضخم من طابقين ، وهو مبنى بالطوب الأحمر ومطلى بطلاء فى لون الفستق ... ونوافذه واسعة مشبكة بالحديد ، وجدرانه سميكة وسقوفه عالية وحيطان حجراته منقوشة بالزيت نقشاً ينم عن السعة والترف ولكنه مع كل هذا غاية فى سقم الذوق وسوء التفصيل والرسم والتخطيط ... فلا حديقة صغيرة تحيط به ... ولا مدخل رحب يستقبل الداخلين من بابه العريض ... ولا حمام مجهز بالأدوات الضرورية ... إنما يمر الداخل فى شبه دهليز مظلم ضيق عن يمينه ويساره تلك الحجرات الواسعة العالية السقوف التى أنفق فى نقوشها الأموال ... إنه منزل يشعر زائره بأن صاحبه غنى الجيب فقير الروح .. ولقد انقبض صدرى منه ... وضاقت نفسى ... وقادونى إلى حجرتى ، وهى خير الحجرات ، وقد وضعوا فيها أثاثاً خفيفاً مما يستعمل فى الرحلات ... غير أنى وجدت نوافذها كأغلب نوافذ المنزل تشرف على أكوام سماد تتصاعد منها الروائح الكريهة ... وانفردت فى حجرتى أخرج من الحقيبة الصغيرة بعض ما أحتاج إليه ... وكانت الشمس قد غربت ... وبدأ الظلام يضيف إلى كآبة البيت كآبة جديدة ... وجعل الخدم يوقدون المصابيح

ويعدون المائدة للعشاء ... ولكن المخرج وأعوانه ما زالوا يعملون ، فلقد سمعت صوت الضرب على الآلة الكاتبة يأتى من إحدى الحجرات البعيدة ... لكنهم لم يريدوا إزعاجى إلى أن حان وقت العشاء ... فدعونى إلى مائدة نصبت فوق سطح المنزل ... فقد كان الحر داخل البيت شديداً ... والبعوض قد ظهر وتكاثر ... فجلسنا إلى مائدة عليها بعض تلك الزهور البرية التى تنبت فى الغيطان ، جمعتها ونسقتها زوجة المصور ، مستعينة ببنات ريفيات نظفتهن وهيأتهن ... وانكشفت لأبصارنا سماء الصيف الصافية ... وكان القمر طالعاً فى تمامه ... والنسيم يهب بين حين وحين رقيقاً رفيقاً ... وجلست فى رأس مائدتنا زوجة المصور صاحبة الفضل فى تنظيم هذا البيت المهجور ... وجلست إلى يمينها الآنسة المساعدة وقد خلعت عويناتها فظهرت عيناها الخضراوان جميلتين براقتين فى ذلك الليل كأنهما عينا القطط وقد خلعت ثياب الرحلات وارتدت ثوباً نسائياً لطيفاً ... فأكلنا أكلا بسيطاً ... لكنه لذيذ هنئ ... وقضينا لحظات ممتعة ، دار فيها الحديث حول « الفيلسوف » فقد قالت زوجة المصور ...

— أرجو أن يكون هو أيضاً قد تناول عشاءه مريئاً ! ...

فقلت :

ـــ لا شك عندى فى ذلك ... فالعمدة لن يعجز عن إيجاد حمارة والدة تعيره شيئاً من الغذاء المادى والمعنوى ، بقليل من اللبن وقليل من الحنان ! ...

وقال المخرج :

ـــ خطر لى فكرة : هى أن نستغل « الفيلسوف » للدعاية والإعلان ...

فقلت باسما :

ـــ آه ... هذا حقا هو الذى كان ينقص « فيلسوفا » : أن يستغله المستغلون ، كما يصنع عادة بالفلاسفة ! ... لكننى لست أرى مبادئه وآراءه التى يجوز أن تكون محل استغلال ، إنه فيما أعلم فيلسوف صامت ، قد حبس فى صدره إلى الأبد كل ما عنده من كلام ...

فقالت الآنسة ضاحكة :

ـــ يكفينا منه صورته ! ...

وقال المخرج :

ـــ نعم .. صورته الرزينة الوقورة ... نسيت أقول لك أن

الآنسة (...) يقع فى اختصاصها أيضاً هذا الباب ... فهى التى تعد وسائل الإعلان باللغات المختلفة وتتولى إرسالها إلى مجلات السينما فى العالم ... ولقد كان صاحبى يعرض علىَّ حقيقة عندما كان يختلف إلىّ فى الفندق أعداداً من مجلات مصورة خاصة بالسينما تصدر فى أوروبا وأمريكا فيها ذكر أعمال الشركة ومشروعاتها ... ومن بينها أخبار ذلك الفلم الذى يعده واسم المتولين إعداده ومضى يقول :

ــ نعم ... أرجو من المدموازيل أن توفق إلى استثمار ذلك ... ولنساعدها الآن ولنفكر معها قليلا : ماذا نقول ؟ ... آه ... فلنقل مثلا إن هذا الجحش هو الملهم الموحى لمؤلف الحوار ... وإنهما لا يفترقان مطلقاً ... ثم نلتقط لكما صورة معاً ...

فقلت :

ــ حقا ... ما أجملها دعاية لمؤلف الحوار ! ... أن يذاع أن وحيه لا يهبط عليه إلا من حمار ! ...

فضحكوا جميعاً ، والتفتت إلىّ زوجة المصور قائلة :

ــ كلا يا سيدى ، بل سيفهم من ذلك أنك ممن يحبون الحيوان ...

ــ أما هذا فصحيح .. نعم ... أحبها كثيرا ، وآسف أن طبيعة

حياتى المتنقلة الآن لا تسمح لى باقتنائها والعناية بها ... فأنا نفسى اليوم فى حاجة إلى من يقتنيني ويعنى بى ، لهذا أكتفى بمشاهدتها والنظر إليها ... إننى لأسر دائما سروراً عظيما كلما مررت فى الطريق بقرد صغير مع قراد ... ولا أنسى ذات صباح رأيت فيه قرداً جالساً مع صاحبه بباب مطعم وقد وضع بينهما طبق به فول وزيت ، فجعل الرجل يأكل لقمة ويطعم قرده لقمة كأنهما أب وابن ..

فقالت المرأتان معاً :

— هذا بديع ..

فقلت ماضياً فى الكلام :

— حقيقة ، ولقد بدا من اهتمامى بالقرود فى شوارع القاهرة أن عرفنى القرادون ... فما يكاد أحدهم يلمحنى سائراً حتى يسرع نحوى صائحاً فى قرده :

— « سلم على سيدنا البك ! ... » .

فيقف القرد على قدميه كأنه إنسان ويرفع يديه إلى رأسه بالتحية ... فأنفحه قرشاً ، وأوصى صاحبه أن يشترى له فولا .. على أن أحبَّ المناظر إلى عينى منظر القرد الصغير وهو يمتطى العنزة ذات البردة الحمراء والكلب ذا الجلاجل وانتقاله بينهما من ظهر إلى

ظهر ، كأنه السيد المدلل ، الذى لا يجوز له المشى والمطايا حاضرة ...

فضحك المصور وقال :

ـــ صورة جديرة بالالتقاط ! ..

فقلت له :

ـــ الأجدر منها منظر تلك الأسرة العجيبة وقد صادفتها يوما فى أحد الشوارع ، حطت رحلها بالقرب من صندوق للقمامة وقد ظهر عليها الجوع والإعياء وبدا عليها الشقاء ... ونبذها الناس .. ولفظها المجتمع ... ولم يعرف لها أحد حقاً من حقوق الحياة .. فلجأت إلى قارعة الطريق .. ولم يبق فيها سيد ولا مسود ، ولا آمر ولا ناه ..

شغل كل بنفسه .. فجلس صاحبها القرفصاء يبحث فى القمامة عن قشور البطيخ وفتات الخبز وفضلات الطعام .. وتفرق أفراد الأسرة ، كل فرد فى ركن يخرج بيده أو بفمه أو بنابه ، على حسب نوعه فى الحيوان ، ما يملأ جوفه الخاوى ... واندست بينهم القطط الضالة والكلاب الهائمة ، تطلب هى الأخرى حقها فى هذه الوليمة المباحة ... وطعم الجميع ، وقد ساد بينهم سكون وسلام وإخاء ،

أثر فى نفسى ، فتقدمت إلى القراد وألقيت فى كفه قطعة فضية صغيرة ، فما صدق المسكين عينيه ... ووثب فى الحال على قدميه ، وصاح فى أسرته صيحة تبشرهم بالفرج وتدفعهم إلى الأمل والعمل :

ــ « العبوا يا أولاد ! ... الليل الليل وأنا كان مالى ! .. ارقص يا ميمون يا صغير لسيدنا البك ، الله ما يجعله يلقى يوم سوء ! ... » .

ودب النشاط فى الجماعة فماءت العنزة ونبح الكلب ، ووثب القرد ، ورأيت الفرح بالحياة يلمع فى عيون الجميع ، وكأنهم أرادوا أن يضعوا فى ألعابهم هذه المرة كل حرارة قلوبهم المقرة بالجميل ، غير أن عمل ذلك الصباح كان فى الانتظار ... ولم يكن الوقت وقت مشاهدة ألعاب القرود والماعز ... فأعفيت الأسرة من أداء العمل ... فرفضوا ... وأبى الرجل أن يدعنى أنصرف قبل أن يقوم أعوانه بالواجب ... ورأيت منهم الإصرار ، وأدركت أنهم لا يقبلون الصدقة ، فهم ليسوا بمتسولين ، إنما هم يأخذون الأجر على عمل أنفقوا فيه جهداً حتى حذقوه ... فلم أشأ جرح شعورهم .. وقلت للرجل : « طيب العبوا بسرعة ! ... » .

فابتسم المخرج والمصور ، وقالت الآنسة المساعدة :

ـــ حقيقة ، إن فى بعض الحيوانات ذكاء يدعو إلى العجب ! ...

فقالت زوجة المصور :

ـــ ووفاء ..

فقلت من فورى :

ـــ أما عن الوفاء فلن أنسى مطلقاً وفاء الكلبة « فوكسة » ..

فقال الجميع فى عجب :

ـــ فوكسة ؟!..

ـــ نعم تلك كلبة كانت فى ضيعة لنا ... أهمل شأنها الجميع ... فتركوها تنام حيث تشاء ، وتأكل ما تصادف فى الجرن من أقذار ... فالفلاحون أفقر من أن يفكروا فى أمر حيوان لا ثمن له فى سوق الماشية ، وبلغ من إهمالهم هذه الكلبة أن أطلقوا عليها ذلك الاسم الذى لا ينم عن جهد فى الاختيار ... فكل كلب عندهم اسمه « فوكس » .. فلتكن هذه الكلبة إذن « فوكسة » ... ولبثت « فوكسة » على هذه الحال من حقارة الشأن وهوان المنزلة ، مع أنها حارسة الضيعة التى لا تنام ... إلى أن جاء رجل من بلدة مجاورة يأخذها لتلد صغاراً من كلب له ، فقال له أهل الضيعة أن خذها فلا حاجة لنا بها ... فأقبل

عليها الرجل حاملا فى إحدى يديه حبلا من الليف وفى الأخرى بعضا من رغيف أداة الترغيب إذا رضيت وأداة الإرغام إذا كرهت ... ولكن « فوكسة » انقادت للرجل طائعة مختارة ... وعجب الفلاحون لها أول الأمر .. لكن ... لم يمض النهار حتى شهدوها فى مكانها المعتاد من الجرن رابضة ... وإذا الرجل يرجع حانقا صاخبا ، لا يدرى كيف غافلته وانفلتت عائدة ... وأخذها مرة أخرى فذهبت معه مطواعة مختارة ، وعيون أهل القرية تشيعها فتدير وجهها شطرهم ، ناظرة إليهم نظرات هادئة مطمئنة ، لكن فيها شيئا كالسخرية ، وكأنها تقول لهم : « لا تخافوا ، سأعود عما قليل ! ... ، ولم تمض بالفعل ساعة إلا وهى فى الجرن من جديد ... حتى قنط الرجل منها ومن أمر زواجها ... وأيقن الجميع أن وفاءها لأصحابها أجل عندها وأفضل من الزوج والزواج ...

فالتفتت إلىّ زوجة المصور وقالت :

— ألا ترى معى أن فى هذه الحيوانات شيئا ! « إنسانيا » بالمعنى السامى لهذه الكلمة ؟ ...

فقلت مؤَمنا :

— هذا صحيح .. بل إن فيها أحيانا من الإنسانية أكثر من الإنسان

نفسه ! ... إن فكرة « الشر » غير موجودة عند الحيوان ... إن أغلب الحيوان محب للسلام والإخاء والصفاء ... والقليل الذى تطلق عليه اسم « الضوارى » لم يعرف قط العدوان لمجرد الزهو بالعدوان ... الإنسان وحده من بين مخلوقات الأرض هو الذى يرى الاعتداء على أخيه الإنسان ما يسميه « المجد والفخار » ! ...

فقالت زوجة المصور :

— إنى معك فى هذا الرأى ... إن وحشية الإنسان قد بلغت حداً لم يبق معه إلا أن نرد اعتبارنا إلى الحيوان وأن نعدل نظرتنا إليه وأن نتخذه هو المثل الأعلى لما ينبغى أن يكون عليه سلوك الإنسان ، إذا أراد إقرار الخير والسلام فى الأرض ...

* * *

ومضينا فى هذا الحديث حتى التاسعة ... فنهضت زوجة المصور ... واستأذنت فى النزول ... فقد كانت فى انتظارها نساء من أهل القرية ، اعتادت منذ هبطت الريف ، أن تضع « القطرة » فى أعينهن ، وأن تعنى بشأنهن ...

ورأينا أن نأوى إلى حجراتنا نحن الآخرين ، كى نستيقظ مبكرين فنرى شروق الشمس ... فقد قال المخرج إنه يود لو يستنبط من طلوعها بين النخيل « عبارة سينمائية » ذات بلاغة وروعة ...

٧

دخلت حجرتى فوجدتها تضارع جهنم ... فالحر يكتم الأنفاس ... والهوام تملأ جو المكان ... وصوت البعوض يدوى فى الآذان .. وجاءنى خادم من فلاحى هذه القرية قد ألحق مع من ألحقوا بخدمة هؤلاء الفنانين ، فوضع دواء فى إناء يتصاعد منه بخار طول الليل يطرد البعوض والهوام ... ذكر لى أن السيدة زوجة المصور قد أوفدته به ... فهى لا تنسى شيئاً مما ينبغى عمله لتوفير أسباب الراحة الممكنة فى هذا الريف ... فحمدت لها ذلك .. ولحظت نظافة هذا الفلاح ... فسألته عن أمره ... فذكر لِي أن « الست الخوجاية » هى التى علمته وأفهمته أن يكون نظيفاً ... وأنها تراقب بنفسها كل يوم غسيل ثيابه ... وأنها تتعهد بالعلاج ما يمكنها علاجه من صحته ... وتلاحظ أمر غذائه ونومه وعمله وتضبط أوقات ذلك كله بالساعة ... وهى تقوم بهذا كله له و لجميع من يحومون

معه ومن يتصلون بالمنزل من الفلاحين والفلاحات ، ومن يفد عليها منهم سائلا شيئاً ، فإن الأيام القليلة التى قضتها فى إعداد هذا المنزل كانت كافية لإشعار الأهالى بشخصيتها الكريمة وقلبها الحنون النبيل ... فأحبها الجميع وأطاعوها ... وأصغوا إلى نصحها وإشادها ... ثم ذكر لى كيف أن هذا المنزل كان ممتلئاً بالقذر والزواحف والتراب المتراكم ... فهذا المنزل كان مهجوراً منذ زمن طويل ... ونظر الفلاح فى أرجاء حجرتى وقال بلهجته الريفية :

ـــ الست الخوجاية وقفت بنفسها علينا لما طّلعنا من القاعة دى ، كل غلق تراب وأخوه ! ... أصل القاعة دى ولا مؤاخذة فضلت مقفولة من نهار ما انقتل فيها الراجل ...

فقلت واجماً مرتاعاً :

ـــ انقتل فيها ...

فمضى يقول :

ـــ إيوه .. نزلوا بالبلط والفوس ...

ـــ هُوَّ مين !؟ ..

ـــ الراجل ...

ـــ رجل مين ؟ ..

ـــ المعلم ملطى صاحب البيت ...

ثم قص علىّ القصة .. فقال إن صاحب هذا المنزل كان مرابياً ، نزل هذه القرية وأقام فيها أعواماً يقرض الأهالى على مصوغات نسائهم ، حتى لم يبق فى البلدة شيء يرهن ، غير الأطيان ، فجعل ينزع من أملاك الناس ويضيف إلى ملكه ، فأثرى ثراء كبيرا ... ولكن الناس أبغضوه بغضاً شديداً .. أدى إلى قتله ؛ فقد دخل عليه الجناة فقطعوا جسمه إرباً وهو جالس ذات ليلة فى حجرته تلك ، « يجرد » ما يختزنه من مصوغات كعادته كل ليلة قبل أن يأوى إلى فراشه ... ومنذ تلك الليلة .. لم يرقد فى هذه الحجرة أحد .. فقد روى الناس أنها « مسكونة » ... وأنه يسمع فيها إذا انتصف الليل رنين المصوغات على النحو الذى كان يحدث فى حياة المرابى ...

فما كدت أسمع هذا الكلام من الفلاح حتى قلت مرتاعاً :

ـــ يعنى أنا أول من راح ينام فيها بعد الحادثة ! ...

ـــ إيوه ...

فتملكنى رعب ... وأنا شديد الخوف من العقاربت مع الأسف الشديد ... فصحت فى الحال :

ـــ هات لى المخرج بالعجل ، الله يخرج عينيه من رأسه ! ...

فذهب الفلاح يأتى به ... ولبثت أنا فى الحجرة أجيل النظر فى أركانها التى لا يصل إليها ضوء المصباح إلا قليلا ... وصور لى خيالى المصوغات ... فارتجفت وعلمت أنى لن أغمض جفناً طول ليلى فى هذه الحجرة ... نعم إنى أرهب الأشباح ... وإنه ليخجلنى أن أعترف بهذه الحقيقة ... رجل مثلى كثير التأمل فى أصول الأشياء وجواهر الكائنات ... غذته الفلسفة الوضعية وأشبعته الحقائق العلمية ... نعم ولهذا السبب عينه أخاف العفاريت ... فالخوف إنما يأتى من حدوث صدمة فجائية لمنطق الحقائق المتواضع عليها فى حياتنا البشرية وبالأخص فى حياتنا العقلية ... فهذا الفلاح الذى يتصور الوجود تصوراً خرافياً لن يصدمه كثيراً ظهور الأشباح ... أما أنا المثقف الذى يفهم الوجود على أساس المنطق العقلى ، فإن ظهور شبح ، لا أستطيع تعليل سره بعقلى ، وأرى أن قد انهار أمام ظهوره منطقى ، لخليق أن يصعقنى أو يفقدنى صوابى من الفور ... لقد كان يدهشنى دائماً فى قصة « فوست » أن ذلك العالم الفيلسوف لم يجن لظهور « مفستو » إلا أن يكون هذا العالم قد بلغ فى قنوطه من العلم مبلغاً وضعه فى موضع المنتظر الهادئ لكل أعجوبة خارقة للعلم ... ولعل هذا كان قصد « جوته » . نعم ، لا ريب عندى أن

رجلا مثل/« كانْت » أو مثل « أوجست كونت » إذا رأى عفريتاً لارتاع منه ألف مرة أكثر مما يرتاع رجل كالقديس « سالت انطوان » أو كالقديس « سان توما » على أن خوفى تلك الليلة من رنين مصوغات المعلم ملطى لم يكن لاعتقادى إمكان ظهور هذه الأصوات ... فالاعتقاد أو عدم الاعتقاد لا يقدم عندى ولا يؤخر ، إنما أنا أخاف نفسى ... أخاف خيالى وما ينسج لى من صور ، أكثر مما أخاف الأشباح فى ذاتها ... إن أكثر الناس خوفا فيما أظن هم أغزر الناس خيالا ، إنى لا أخشى الواقع ... إنى لا أخشى الموت ، ولا أخشى الخطر ولا أخشى الجبروت ... ولا أخشى أن أطلق كلمة جريئة صريحة أعتقد أنها الحق ولو نصبت خلفها المشنقة ... ولكن أخشى الانفراد فى مكان يقال لى إنه « مسكون » ... آه هذه الكلمة وحدها هى التى « تسكن » رأسى أشباحا لن تبرح حتى يطلع النهار ...

* * *

لم يمض قليل حتى سمعت ببابى طرقا خفيفاً ، وظهر المخرج فما كدت أراه ، حتى خجلت أن أذكر له شيئاً مما كان يدور فى نفسى ... فهو قد يسىء فهم موقفى ، فيسخر منى أو يظن بى

الظنون.. فرأيت أن أنتحل سببًا آخر ينقذنى من هذه الحجرة تلك الليلة ... فقلت له فى صوت المختنق وأنا أضع يدى حول عنقى :

ـ أف ، الحر ...

فلم يمهلنى حتى أتم عبارتى ، وقال موافقا وهو يجلب الهواء إلى وجهه بمنديله :

ـ صدقت الحر شديد الساعة ... ما قولك لو صعدنا إلى السطح ... ننتفع قليلا بالنسيم ... ونتحدث فى أعمال الغد ... إلى أن يتقدم الليل قليلا ويعتدل الجو فى الحجرات ؟ ...

فأسرعت أنتهز الفرصة :

ـ ليس والله خير من ذلك ! ...

وخرجنا من الحجرة ... وأنا أرجو فى نفسى أن يطول بنا المقام ، فلا أعود إلى حجرتى المشئومة تلك الليلة مطلقاً ... وصعدنا إلى السطح ... فلم أجد به أحداً ... فلقد كان جميع الرفاق الآخرين قد آووا إلى حجراتهم ... مطمئنين ، هادئين ، إلا ذلك المخرج ... فقد وجده الخادم لحسن حظى مستيقظا ما يزال يتمشى على السطح حيث تركه أصحابه عقب العشاء والسمر ... فقد راقه جمال الليل ... ونقاء الهواء فنشط ذهنه للتفكير فى فنه وكانت المائدة

ما زالت قائمة بعد أن رفعت عنها الأطباق ولم يبق عليها سوى زجاجة من « البورتو » وبضعة أقداح و « ترموس » به قهوة ساخنة ... فجلسنا ...

وقال لى المخرج ...

— كأسا من البورتو ؟ ... أو فنجانا من القهوة ؟ ...

فقلت من فورى ، وقد تذكرت عزمى على السهر ! ...

— بل كثيراً من القهوة ! ...

٨

جرع صاحبى كأسين من (البورتو) أفرغا فى ذهنه النشاط ... وجرعت قدحين من القهوة ألقياً فى عينى اليقظة ، وهيآنى لاجتياز تلك الليلة التى لن أعود إلى مثلها ... وساد علينا صمت مريح ... قطعه الرجل قائلا :

ـــ والآن إلى العمل قليلا ولننتهز الفرصة ونتحدث فى (السيناريو)...

فشعرت كأن الخوَرَ والفتور يدبان فى أعصابى ، وأحسست كأنى موشك على التثاؤب ... وأيقنت أن النوم لا بد هاجم علىّ إذا تحدث هذا الرجل فى قصته فنهضت على قدمى واثباً ، وبادرته :

ـــ ما قولك فى نزهة صغيرة على جسر ترعة هذه القرية ...

فقال من فوره :

ـــ فكرة بديعة ...

ثم نهض ... ونزل معى إلى الطريق ... فوجدنا ببابنا خفيرين نظاميين نصبهما العمدة لحراسة منزلنا فأبيا أن يتركانا نسير فى الليل بلا دليل ... فبقى أحدهما بالباب ، وتبعنا الآخر ببندقيته الحكومية العتيقة الطراز التى تصلح للإرهاب ولا تصلح لقتل الذباب ! ... ومشينا الهوينا إلى الجسر ، فقابلنا قوما من الفلاحين يهبطون بحميرهم من (داير الناحية) عائدين إلى دورهم ... بدأونا بالتحية .. فرددنا عليهم بمثلها ... وما كادوا يتبينون خلفنا الخفير النظامى حتى أدركوا أن لنا شأناً وقدراً فترجلوا احتراما ... وقال لى صاحبى :

— ما قولك لو استعرنا منهم حمارين نمتطيهما فى هذه النزهة ؟ ...

فكاشفنا القوم برغبتنا فصاحوا من قلوبهم :

— تفضلوا ! ... تفضلوا ... يا ألف مرحباً ! ..

وأقبلوا يرفعون صاحبى بسواعدهم على ظهر حمار ... ورأيت بعضهم يهرش جسده هرشا متصلا ... فقلت لصاحبى أنبهه :

— لا تنس أن القمل قد سكن أجسام هؤلاء المساكين ! ...

فقال صاحبى وهو يعتدل على ظهر الحمار :

— لا بأس ... سأغير ملابسى قبل النوم ...

وركبت مثله .. ووعدنا الفلاحين برد الحمير إليهم مع الخفير

فانصرفوا راضين ... وسرنا فى طريقنا .. والمخرج فرح بالمطية ... والتفت إلى قائلا فى ابتسام :

ـــ ما أكرمهم ! ... لعلهم أسكنوا القمل أجسامهم كرماً منهم وحسن ضيافة ! ... مهما يكن من أمر فإنى أقدر هذه النفوس الطيبة الكريمة تقديراً كبيراً ... وإنك لتستطيع أن تدرك قيمتهم وتلمس الفرق فى المعاملة والسجية لو هبطت قرية أوربية وسألت أهلها شيئاً يسيراً ... لا ... إن شعبكم كريم العنصر بلا جدال ... أما قذارة المظهر فهى تدهشنى حقا ... ولست أدرى ما علتها ؟ ... أهى قلة الماء وأنتم لديكم بحران من أكبر البحار ونهر عظيم وجو حار يغرى الأجسام بالاستحمام ! ...

وسكت فجأة عن الكلام ... وارتفعت من فمه صيحة :

ـــ ستهوى بنا الحمير إلى الماء ! ..

لقد أصاب ... فإن تلك الحمير كانت تسير على عادتها العجيبة سيراً لا يبعث على اطمئنان أمثالنا من الفرسان الخائبين ... فلقد كانت تترك عن عمد الطريق الواسعة المستقيمة وتنحدر إلى حافة جسر الترعة حيث لا يفصل بينها وبين الهاوية غير أشبار وهى تسرع فى الخطى تارة وتتصادم أرجلها وتشتبك تارة أخرى ، غير حافلة

بشيء ... كأنها تضيق بالأمن والعافية وتسعى إلى الخطر تلاعبه وتداعبه بأطراف حوافرها ... كما يفعل المتصوفة الذين ينصرفون عن طرق التفكير المعبدة إلى اللعب بأفكارهم على حافة اللانهاية ...

وسرنا لحظة صامتين ... نتأمل الحقول والنبات والمياه الجارية فى القنوات ... وقد اتخذت فى ضوء القمر ألواناً وأشكالا جديدة ... وسكن حولنا كل شيء ... فالنسيم كان أرق من أن يثير شيئاً ... ومع ذلك فقد كنا نرى الكائنات من حولنا كأنها ساكنة وغير ساكنة ... كأن هنالك أنفاسا خفية تبعث فى الأشياء شبه رقصات لاعبة عابثة ، لا ندركها بحواسنا الظاهرة وخيل إلينا أن آذاننا تسمع ضحكات خافتة تتصاعد من كل شيء . ولكنها ضحكات كالهمسات . وحركات كحركات أجسام الغانيات الثملات لكأن الكائنات تغتسل فى ضوء القمر ..

وقال المخرج كالمخاطب لنفسه :

ـــ إنى أرى الأشياء الآن كما يراها النظارة من خلال ستار الموسلين الذى يضعه مخرجو المسارح عند تمثل الأحلام .

فلم أحر جوابا ...

وخيم علينا الصمت من جديد ... فقد أخرست لساننا تلك

الروعة التى تحيط بنا من كل جانب ...

وهمس صاحبى من بين شفتيه :

ـــ ما أجمل هذا الريف ! ...

ثم اعتدل وذكر لى مرة أخرى أن زوجة المصور التى مكثت فى هذه القرية أسبوعا تكاد تجن سروراً وإعجابا بهذا البلد ... وتتمنى لو تقضى حياتها فى ذلك المكان ... ولو تمنح أيامها كلها لهؤلاء الفلاحين ، تعينهم على تجميل حياتهم وتوسيع مداركهم ليتذوقوا ما وهبتهم الطبيعة من جمال ... إنها تقول إن الشمس والقمر فى هذه البلاد يعملان عمل الخياطة البارعة ... فهما يلبسان الكائنات بسخاء أثوابا جديدة مختلفة رائعة الألوان ! ... إلا الفلاح ، فقد خرج من الحساب ، لأن أمر لباسه ليس من « اختصاص » الشمس والقمر ... نعم ... كل شىء نظيف جميل فى هذا الريف إلا الإنسان ... وهذا ما يغمرها هى الأخرى دهشه وحسرة ...

فقلت لصاحبى وأنا أتنهد :

ـــ أنا أيضاً يملؤنى ذلك دهشة وحسرة منذ أعوام طوال ! ...

فقال :

ـــ وما العلة ؟ ...

فجعلت أفكر وأتكلم كالمخاطب لنفسي :

ـــ العلة ... العلة ظاهرة ...

أنت وحدك ذكرتها الآن دون أن تلحظ ذلك ... العلة هو أنه لا توجد فى مصر بعد امرأة مثل زوجة المصور ... العلة نستطيع أن نتبينها على نحو بارز ، لو رجعنا إلى تاريخ الريف الأوربى .... فلنأخذ ريفكم الفرنسى مثلا ... ما الذى حدث فيه ؟ ... لقد كان فى عهد النظام الإقطاعى بيد الأشراف ... أولئك الأشراف هم الذين جملوا الريف ... بدأ سيد المقاطعة بتشييد قصره الجميل النظيف ... وقطنه مع زوجته وأولاده ... واعتبر أهالى المقاطعة رجاله ، الذين يعملون لخيره وعزه وسلطانه ويعمل هو لحمايتهم ... على أن المهمة العظمى فى رفع مستوى أولئك القرويين كان قوامها : زوجة الشريف ... إنها هى باستقرارها فى الريف واتصالها بزوجات كبار القرويين ، عملت على إدخال المثل الصالح فى النظافة والذوق إلى جميع البيوت ... لقد كانت هى المرجع الأعلى لشئون الصحة والبيت ... إذا حدث مرض جاءتها النساء يسألنها دواء ... وإذا وقع حدث جئنها يسألنها النصح ... إنها المدبرة لشئون البيت والصحة والنظافة والذوق للقرية والمقاطعة ، كما أن زوجها الشريف هو المدبر

لشئون الأمن والقضاء .. إنها هى الحاكمة المطلقة لشئون الحياة الاجتماعية فى دائرتها ، كما أن زوجها هو الحاكم المطلق لشئون الحرب والكسب ... هى التى تنظم الحفلات وتعد المجتمعات وتنثر النماذج الصالحة لكل ما هو جميل ... من ملبس وتحف وأوضاع ومراسيم يحذو حذوها ويقلدها زوجات الأثرياء من القرويين أو المقربات من القرويات وهن مشدوهات الأفواه ، مفتوحات العيون ، ويذهبن فيتحدثن بهذا فى القرى ويدخلن هذا على أنفسهن وبيوتهن ... إلى أن ذهب نظام الإقطاع ومضى زمن الأشراف ... وجاء عهد الديموقراطية ... فلم يتغير الوضع ... فقد حل فى الريف محل زوجة الشريف زوجة المالك الكبير أو زوجة القروى الغنى ... وقد ورثت كل صفات السيدة الشريفة فوجدت من واجبها أن تحتذيها ... وتقوم فيمن دونها من فلاحات القرية مقام المرشد المعين ... أما فى المدن فقد حلت كذلك زوجة التاجر الموسر والصانع والرأسمالى محل النبيلة وورثت واجباتها ومهامها فى المجتمع ... فأصبحت هى التى تزور الأحياء الفقيرة ... تواسى المرضى وتمدهم بالأدوية والنقود وتحمل للأطفال اللعب والحلوى ... لم يأت عصر فى أوروبا تخلت فيه المرأة عن واجباتها باعتبارها سيدة ... لأنها تعلم أن كلمة سيدة

لم تطلق جزافا ... إنما هى وظيفة فى المجتمع لها عمل يستغرق وقتا وجهداً ... ولها مظهر سيادة وقيادة لمن يحتاج إلى المعونة من أتباعها فى الريف أو جيرانها فى المدن ... لقد تغيرت الأسماء السياسية ، الاجتماعية فى أوروبا ولكن المهام والأعمال لم تتغير ... لقد طلى لون السلم الاجتماعى بطلاء آخر ... ولكن هذا السلم قائم دائماً ... لأنه من نواميس الحياة الثابتة ...

ينبغى أن يكون هنالك دائماً طبقة تتقدم طبقة فى الثراء أو فى المعرفة ... غير أن الذى شوهد فى أوروبا وما زال يشاهد فيها : هو أن كل طبقة فى أعلى السلم تمد يدها لكل طبقة فى أسفله ... هنالك تماسك بين الدرجات ... هناك نموذج يتبع ومثل يعطى من الطبقة العليا للطبقة السفلى ...

هذا ما حدث فى أوروبا ... أما فى مصر ، فلم يحدث ذلك ، فإن الإقطاع فى مصر ، كان فى يد أرستقراطية أجنبية من المغول أو الأتراك العثمانيين ، ما كانوا يعتبرون الفلاح رجلهم بالمعنى الأوربى للكلمة ، ولكنهم كانوا يعدونه عبدهم بالمعنى الشرقى للكلمة ... بل أقل من عبدهم ، فقد كان للكلب والفرس عندهم من الحرمة والكرامة

والحقوق ما ليس للفلاح ، هذا الفلاح الذى يتكلم لغة غير لغتهم ، ونبت فى أرض لم تكن أرضهم ...

لقد كان القروى الفرنسى يعتبر الشريف سيداً ، ولكن السيد كان يعتبر القروى مثله فرنسياً ... يحارب معه جنبا إلى جنب ... أما السيد التركى العثمانى فكان يعتبر الفلاح المصرى من طينة قذرة ... فما كان يسمح له بشرف الجندية ولا الفروسية ولا بشرف المصاحبة فى حفل أو اجتماع ... هذا عمل المولى ... أما عمل المرأة زوجة هذا المولى ... وهى فى أكثر الأحيان من الجوارى البيض ... فلا شيء إلا متعة سيدها ... وهى على كل حال قد وضعت فى الحريم ... لا شخصية لها ولا مهمة ولا عمل إلا ما يمكن أن تقوم به المملوكات .... يضاف إلى ذلك شعورها هى أيضا بذلك الازدراء لكل ما يسمى «فلاح»... ذلك الشعور الذى يحول دون كل حدب على هذا الجنس، الذى تعتبره غريباً عنها، وضيعاً فى عينها، فهو جنس المحكومين، حقيراً فى عرفها لا يرجى منه ولا ينبغى أن يرفع من شأنه أو يغير من أمره شيء... وعلى هذا النحو، انشطرت مصر إلى شطرين بعيدين وانقسمت إلى طبقتين لا تمد إحداهما إلى الأخرى

يداً ... وبدا السلم الاجتماعى على ذلك الشكل العجيب : طائفة فى أعلاه وطائفة فى أسفله ، ثم لا شيء بين ذلك غير فراغ ... فقد تحطم وزال فى هذا السلم ما بين الأعلى والأسفل من درجات ... وانقضى عهد النظام الإقطاعى فى مصر ... وجاءت العصور الحديثة ... فلم يتغير بالطبع هذا الوضع ، فالمالك الغنى أو الفلاح الموسر الذى حل فى الأرض محل السيد العثمانى ، قد ورثه كذلك فى طباعه وقلده فى ميوله وعاداته ... فتزوج هذا الفلاح المالك بالجوارى البيض ، وجعلهن فى الحريم ... وازدرى أحياناً هو أيضاً أبناء جلدته من الفلاحين ... ثم ذهبت « بدعة » تقليد الأتراك بالزواج من الجوارى البيض ... ونشأت القومية المصرية ، وظهرت مبادىء جديدة واتجاهات حديثة ، وتعلمت المرأة المصرية فى المدارس والجامعات ، وعرفت كيف تتكلم فى المجتمعات ، وتكثر من ألفاظ الحرية والمساواة بالرجل ، وحقها فى هذا وحقها فى ذاك ... ورغبتها فى محاكاة أختها الأوروبية ... ولكنها بقيت حتى الساعة التى أحدثك فيها وريثة الجوارى البيض ... قد دخل النور قليلا رأسها بفعل التعليم ، ولكن روحها ما يزال فى أكثر الأحيان روح الجوارى

البيض ، إنها ما زالت بعيدة عن أن تكون « سيدة » بالمعنى الأوربى للكلمة ... فالسيدة باعتبارها وظيفة فى المجتمع ، يقوم على كاهلها أعباء مواساة الفقير ومداواة المريض من أهل حيها أو ريفها ، وتجميل القبيح من بيتها ، وتعمير الخرب من أحوال بيئتها ... السيدة باعتبارها شخصية قائمة إلى جانب زوجها السيد ، مسؤولة عن أشياء لا يستطيع هو القيام بها ... هذه السيدة التى تعد قوة بناء فى المجتمع لم توجد بعد ... ولكن الذى وجد حتى الآن ، نساء يرتدين أحدث ثياب السهرة مقلدات « السيدات » ... وقد أتقن بعض الشيء الظهور فى الحفلات ودور السينما والولائم والرطن ببعض اللغات ...

ولكن ..

وصمتُّ فى الحال فقد قطع حديثى صوت غريب دوى فى الفضاء الساكن ، ألقى الاضطراب والخوف فى نفوسنا ... وكنا قد بلغنا فى سيرنا منزلا كبيراً جميلا ، لا ينبعث عنه ضوء ولا صوت إلا ذلك الصوت الغريب ... فالتفتنا إلى الخفير خلفنا مرتاعين فهدأ من روعنا قائلا :

ــ دى سراية الباشا ...

ثم ذكر لنا أنها مغلقة ، ولا أحد فيها غير ناظر العزبة ، يحتل منها الطابق الأرضى ... أما الطابق الأعلى فيسكنه ذلك « البوم » الذى يحدث هذا الصوت الغريب ... وجعل يصف لنا هذه السراية وما فيها من أثاث ، ويقول بلهجته الريفية فى إعجاب :

ــ آه لو كنتم تدخلوها وتتفرجوا عليها من جوّه ! ... يا صلاة النبى أحسن ! ... ما ييجى فى ريحها بقى إلا سراية البك عبد الغنى ... !

فسألناه عن هذه السراية الأخيرة ، فقال إنها فى الجهة الأخرى من الجسر فى عزبة واسعة لهذا البك ، وقال أيضاً إنها مغلقة لأن البك والبك الصغير والست مقيمان فى القاهرة .. فما تمالكت نفسى والتفت إلى صاحبى وقلت له :

ــ أرأيت حرم الباشا وحرم البك ؟ ... تركْن عملهن هنا ، عمل « السيدات » وأقمن فى القاهرة ليذهبن كل ليلة إلى السينما ، هذا ما عملته نساؤنا اليوم بعد أن خرجن من قفص « الجوارى البيض » ! ... آه يا صاحبى ... إن « السيدة » الجديرة بهذا الاسم هى زوجة .. زميلك المصور ... تلك التى ورثت شخصية سيدات

الأشراف ... ففهمت كيف تكون نافعة مفيدة للإنسانية أينما حلت. إنها تريد أن تمكث هنا لترفع شأن هذا الفلاح المسكين وهى لا تربطها به صلة غير صلة البشرية ... سألتنى العلة فى قذارة هذا الفلاح .. فقلت لك وأقول وسأقول دائماً العلة هى المرأة .. يوم تتخلص المرأة المصرية من روح « الجوارى البيض » وتتقمص روح « السيدات » تعال انظر عندئذ إلى الريف المصرى والفلاح المصرى ...

٩

عدنا إلى المنزل وقد انتصف الليل ... فدخلنا وأوصلنى صاحبى إلى باب حجرتى وقال :

ـــ نوما هنيئا ...

فتذكرت من فورى العفاريت ورنين المصوغات وانتصاف الليل ، موعد انطلاق الأشباح كما تروى دائما الأساطير والخرافات ، فوقفت جامداً على العتبة ، فقال صاحبى :

ـــ ما بك ؟ ...

ـــ النوم الآن مستحيل ... فالحر والبعوض ...

ثم جذبته من يده وقلت له :

ـــ هلم بنا مرة أخرى إلى السطح ...

ـــ كما تريد ...

وصعدنا ... فارتمينا فى الكراسى ، نستريح لحظة مما أصابنا من

ظهور الحمير ... و لم يمض قليل حتى اعتدل المخرج فى مقعده والتفت إلىّ قائلا :

ــ لو انتهزنا الفرصة وعدنا إلى الحديث فى السيناريو ...

فقلت فى نفسى :

آه ... أهرب من العفاريت تحت ، ألقى السيناريو فوق ! ...

و لم يمهلنى المخرج و لم يرحمنى ... فقد عاجلنى بقوله :

ــ ما رأيك فى موقف « حسن » ؟ ...

فالتفت إليه حائراً منزعجا :

ــ حسن من ؟ ...

ــ أبو مهدى ...

ــ ومن مهدى ؟ ...

ــ عجبا ! ... بطل القصة ...

ــ آه ... لا مؤاخذة ...

ــ هل ترى إذن موقف غرامه بأمينة طبيعيا ؟ ...

ــ ومن هى أمينة ؟ ...

ــ عجبا لك ، بطلة السيناريو ...

ــ آه ، لا تواخذنى ..

ــ إنك تنسى بسرعة مدهشة ... لكن ... لا بأس ...

ورمقنى بنظرة تسامح أخجلتنى ... فرأيت السلامة فى أن أتجنب الليلة هذا الحديث ، فنهضت أبحث عن شيء يشغلنا عنه ، فوجدت سلماً خشبيا مستنداً إلى جدار حجرة فوق السطح كانت تستخدم فيما أرى برجا للحمام ... فصعدت درجات ذلك السلم حتى انتهيت إلى سطح هذا البرج ، وهو أعلى المنزل ، بل أعلى مكان فى القرية ، يشرف الناظر منه على الحقول والجداول والطرق والمساكن ... فوقفت على هذه القمة ... فأعجبتنى المناظر التى تكشفت لى منها ، فناديت زميلى ، فصعد خلفى ، ووقف إلى جانبى يتأمل النخيل ، رشيقة نحيلة تتمايل تحت النسيم ، وقد كلل نور القمر رؤوسها بذلك الغلاف الشفاف ... فما تمالك صاحبى أن صاح :

ــ انظر ! ... كأنها غيد ملاح خارجة من الحريم تتمايل محجبة بالحرير ! ...

وجعلنا نتأمل كل شيء فى سكون ... وهبط صمت عميق على القرية .. فكل شيء فيها قد نام ... وإذا صاحبى يشير بأصبعه إلى بعض دور الفلاحين حولنا ويهمس :

ــ انظر ... فوق هذه الأسطح ...

فالتفت حيث أشار وهمست :

ـــ ماذا ؟ ...

ـــ ألا ترى ... هناك ...

فحققت النظر وقلت :

ـــ أخبرنى أنت ماذا ترى ؟ ...

فقال فى نبرة الإعجاب :

ـــ هذه الأطياف الصاعدة إلى السطح متدثرة فى السواد ، لا يبدو منها غير عيون جميلة براقة ، انظر ، إنها تتمايل بقدودها النحيلة كأنها النخل الثملة من لعب النسيم ... تلك غيد من حسان الريف قد اتخذن من الليل ستارًا وصعدن إلى حيث يلقين عشاقهن المنتظرين تحت الجدران ! ...

فكتمت ضحكى وقلت له :

ـــ نحن الساعة أبعد ما نكون عن قصة « روميو » وجوليت ، فهؤلاء النسوة التعسات إنما تركن هن أيضا « القيعان » إلى السطح هربا من الحر والقمل والبعوض ... ولا شىء غير ذلك ...

فلم يرق صاحبى هذا الكلام ... فهو لا يريد أن يرى فيما حوله الحقيقة « الواقعة » فقد عاد يقول كالحالم إن أمينة بطلة قصته ينبغى

أن تخرج فى الليل كأنها الشبح تطل على مهدى حبيبها من أعلى السطح فيراها كأنها الشمس الطالعة من الشرق ، قد سطعت ببهائها فمرض القمر غيرة وحسرة وبهت لونه وشحب وجهه ولقد شعت عيناها بوهج لألاء خالته العصافير فلق الصبح فأخذت فى التغريد والغناء ، وإنها ما تكاد تبصر حبيبها يتسلق الجدار حتى ترتاع قلقا خشية أن يراه أهلها فيريدوا به شراً ... فتصيح به ... ماذا ينبغى أن تقول له ، والتفت إلى صاحبى قائلا :

ــ هنا يبدأ الحوار ... ماذا ينبغى أن تقول هذه الفتاة ؟ ...

فأجبت فى سخرية خفية :

ــ تقول ... « كيف ولماذا جئت هنا ، والجدران عالية ، آه ... لو رآك أهلى هنا لقتلوك ، فيجيها : « إنه الحب قد أعارنى أجنحته لأرقى بها هذه الحيطان ... فعقبات الأحجار لاتستطيع صد الحب ... لقد أعارنى الحب ذكاء فأعرته عينى .. إنى لست ملاحا .. ولكنك لو كنت شاطئا فى بحر من البحار النائية لنشرت فى الحال شراعى وانطلقت أجوب إليك البحار ... فتقول : أخشى أن يباغتك أهلى هنا فيقتلوك ، فيقول : « واأسفاه ... إن عينيك لأشد خطراً علىّ من عشرين « فأسا » من « فئوسهم » فتقول له « أتحبنى

حقا ؟ ... إنك قائل نعم ... » فيجيبها : نعم وأقسم لك بهذا القمر الساحر الذى يطلى ضياؤه بالفضة هام هذه « النخيل » ... فتقول له : « آه .. لا تقسم بالقمر ... هذا القمر المتقلب الذى يتغير فى كل شهر ... فإنى لأخشى أن يكون حبك مثله لا يثبت على حال ... لا ... لا تقسم ، حسبى سعادة أنى أراك وأن سعادتى الليلة لم تبلغ التمام ... فقد جاءت سريعة مفاجئة ، كأنها البرق الخاطف يذهب لمعانه قبل أن نستطيع حتى أن نصيح : ها هو ذا قد لمع ! ... فالتفت إلىّ صاحبى غاضبا فى غير جد :

ـــ أتهزأ بى ؟ ... ذاك حوار شكسبير !..

فقلت باسما :

ـــ ماذا أصنع لك ما دمت تأبى إلا أن ترى الأمور بعين الخيال والقصص ... إنما الحقيقة التى أعرفها هى أنى لم أرَ قط فى هذا الريف غراماً ارتفع إلى هذا المستوى الشعرى ، الذى يدخل فى إطاره القمر والشمس والنسيم والزهور والندى ... لو أن هذا الغرامُ وجِـدَ لوجدت النظافة فى الحال ... ولوجد شيء من الذوق ، ولوجد شيء من الجمال ... لا شيء يخلق فى المرأة الرغبة فى التجمل والشعور بكل ما هو جميل غير الحب النبيل ... كل ما يدرك من أمر الحب هنا ، إنما

هو حب الحيوان أو حب العبيد : شيء مباشر وضيع زهيد ... يأتى ويذهب فلا يخلف أثراً غير الأثر المادى البيولوجى الذى يخلفه عادة بين طائفة القرود أو الزنوج ... أما ذلك الحب الذى يأتى فيفتح العيون والنفوس على ألوان من الحسن وضروب من الإحساسات الرفيعة ... ولا يذهب حتى يترك صاحبه وقد تكون تكويناً جديداً ، وسما على نفسه سمواً ملحوظاً ! ... ذلك الحب الذى كان دائماً خير مدرسة للمشاعر البشرية العليا ... ذلك الحب الذى كان دائماً النبع الذى انبثق منه الفن والجمال ، عمادا للرقى الإنسانى ... ذلك الحب لا يمكن أن يوجد الآن فى هذه البقاع ، لأن وجوده معناه أن الإنسان الأعلى قد وجد ... وهذا مالا نستطيع أن ننعت به بعد هذه المخلوقات المسكينة ...

قد تسألنى ولماذا لم يوجد هنا هذا الحب ؟ ... فأقول لك مرة أخرى ... لأن العلة هى دائماً العلة . إن الحب الرفيع لا يظهر مطلقاً فى جو العبودية ... ولا ينبت إلا فى أرض الحرية الروحية ، والمرأة المصرية ربيبة الجوارى لم تكن تفهم من الحب إلا ما تفهمه الجارية المملوكة ... إن الحب الرفيع زهرة ينبغى أن تتساقط بذورها من السماء ... وليس فى جو « الحريم » المغلق سماء ...

هنا قاطعنى صاحبى صائحاً :

ـــ عجباً ، أوَ لم ينقض عهد الحريم بعد ؟ ... إنى أرى المرأة المصرية فى المدن قد خرجت سافرة وتعلمت وبدت كالمتحضرة ...

فقلت له :

ـــ نعم ... حدث هذا الانقلاب ... وقد جاهد مصلح اجتماعى هو « قاسم أمين » طول حياته من أجل هدم قضبان « الحريم » المادى ... وقد نجحت صيحته ... وكسرت المرأة قيودها المادية ، وظهرت فى المجتمع على صورة شبه متحضرة .. ففرحت وتملكها الزهو وظنت أنها بلغت النهاية ... ولكن ... للأسف ! ... اتضح لعينى أنها ما زالت ترزح فى قيد آخر لم تلتفت إليه ... قد يحتاج إلى صيحة أخرى من قاسم أمين آخر يتم المرحلة ! ... إن المرأة المصرية قد خرجت حقيقة من سجنها المادى ولكنها ما زالت رهينة سجنها الروحى.. إنها فى شبه « حريم » معنوى لا تكاد تحسه ، لأن مداركها المعنوية ما زالت قاصرة .. إن الحب الرفيع مجهول لا عند نساء الريف وحدهن ، بل عند نساء المدن المتعلمات أيضاً ... لأن روح الجوارى البيض كاملاً ما زال فى هؤلاء وأولئك على السواء ... ولو وجد هذا الحب فى الريف والمدن لوجد الفن العظيم فى الحال ... إنى

باعتبارى روائياً لا أستطيع أن أتصور حواراً رائعاً بين مصرية ورجل تحبه ... لو وجد الاثنان فى حديقة مقمرة ماذا يقولان ؟ ... من العسير أن أتخيل شيئا جميلا يقال بين هذين المحبين ... فهى ما زالت على الرغم من حريتها المادية تحس كأن شيئاًسجيناً فيها ... إنها لا تدرى ماذا تقول لحبيبها عند اللقاء، فليس فى تاريخ عصورها القريبة ما يسعفها ... وليس فى ألفاظ لغتها العادية ما يواتيها لساعتها ، وليس فى مداركها ومخيلتها ما ينقذها ... إن الأوربية تتكلم فى الحب وأمامها صورة بياتريس الإلهية حبيبة الشاعر دانتى ... ولورادى توفّس ملهمه بترارك ... وتتمثل ما جرى بينهما من نبيل الحوادث وتتذكر ما تعلمته من جميل الشعر والأحاديث والمثل العليا التى يوحيها الحب التقى الطاهر ... إن الفن والشعر والأدب قد علم المرأة الأوربية ماذا تقول وماذا تفعل إذا أحبت ... لأن الفن والأدب كانا من لزوميات سيدات القصور منذ عهد الإقطاع ... فهن حاميات الشعراء والفنانين ... وهن المتذوقات المتفهمات لنتائج قرائحهم ... ومَن غير المرأة ينبغى أن يتذوق محاسن الطبيعة والأذهان ؟! ... ومَن غير الجميلة يقدر الجمال ... ثم ورثت نساء الشعب عن سيدات القصور هذا التقليد ، فصرن يقبلن على الفنون

يجملن بها أرواحهن إقبالهن على الأصباغ يجملن بها أجسامهن ... وصارت القادرة منهن تفتح صالونها للفنانين والشعراء ... وارثة بهذا عن سيدة القصر حق حماية صانعى الجمال والذوق ... ذلك أن السيدة الجديرة بأن تسمى سيدة ، تلك التى يجرى فى عروقها دم الحرية والسيادة ينبغى لها دائماً أن تشعر فى نفسها أنها تحمى شيئاً أو تدافع عن إنسان ... لذلك جعلت الأوربية دائماً من عملها الطبيعى وواجبها القومى أن تحمى الفقراء والأطفال والمرضى ... ثم أهل الفنون إذا استطاعت ، أى تلك الطوائف من الأمة التى تحتاج إلى مشاعر المرأة الرقيقة النبيلة ... هذا هو معنى الحرية الروحية عند المرأة ... تلك الحرية التى أطلبها لبنات جلدتى فى مصر والشرق ... وأتحمل أحياناً الأذى منهن لأنى أصارحهن فى عنف بما هن فى حاجة إليه ليبلغن هذه الغاية ... فأنا مؤمن كل الإيمان بأن بلادنا كلها تنقلب انقلاباً عظيماً عجيباً لو تمت هذه المرحلة الثانية من مراحل نهضة المرأة المصرية والشرقية ... خروجها من الحريم « الروحى » ونبذها ما علق بها من آثار الجوارى ... وبلوغها مرتبة « السيدة » التى تخلق شيئاً وتحمى شيئاً ...

١٠

رفع صاحبى رأسه والتفت إلىَّ قائلا :

ـــ هل أسمعتَ المرأة المصرية آراءك هذه ؟ ...

فقلت من فورى :

ـــ إنى لا أترك مناسبة دون أن أسمعها آرائى فيها ... فإنى من أشد الكتّاب عناية بشئونها ... إذ ينبغى أن أقول لك شيئا : فى المصرية فضيلة كبرى : هى أنها قديرة على التطور السريع الصامت ... لذلك سمحت لنفسى دائماً أن أصارحها إلى حد العنف كما ذكرت ، حتى ألفت نظرها إلى ما فاتها رؤيته أثناء خطوها الواسع ... يخيل إلىّ أن السهولة التى تتطور بها المصرية سببها بسيط، إنها تحتفظ دائماً بطبيعة المصرية القديمة تحت ثياب الجارية العثمانية ... فما علينا إلا أن ننبهها إلى خلع هذه الثياب شيئاً فشيئاً لتبدو حقيقتها الأولى المجيدة : تلك التى كانت تحسن إدارة البيت والمملكة وتعنى بأمر الفنون ،

وتضع أسس الحضارة ... سأتكلم دائماً هذا الكلام ولن أكف عنه ، وإن تعرضت للسخط العام ، حتى أرى المرأة المصرية نفضت عنها رداء العبيد والجوارى البيض ، لتظهر من تحته سليلة نفرتيتى وحتشبسوت ! ...

فقال صاحبى :

ـــ ألم يخطر لك ، بدلا من تنقلك فى الفنادق ، أن تتزوج لتخلع أنت بيديك هذا الرداء ؟ ...

فقلت لصاحبى فى شبه صيحة :

ـــ أنا أستطيع أن أخلع رداء أحد ؟ ... آه يا صاحبى ... إنك لا تعرفنى ... لقد وددت حقاً لو أتزوج بمصرية ... ولكن شيئا واحداً يمنعنى : هو أنى أشفق عليها من طبيعتى المتعبة . ما أنا إلا « حالة عسيرة » كما يقول الأطباء ، قد يستعصى أمرها حتى على الأوربية المحنكة التى اعتادت أن تفهم زوجها فى هذه الحالة ، وتدرس خلقه وطباعه فى صبر وسكون وتهيئ له نوع الحياة التى تلائمه ... كلا ... إنى على الرغم من خشونتى فى القول للمرأة المصرية شديد العطف عليها ... ولست أحب أن أدفعها إلى مثل هذا الامتحان العسير ...

ــ أخشى أن تكون مبالغاً ...

ــ إنى لا أبالغ ... إن الحمل سيكون ثقيلا عليها والتبعة جسيمة ... فأنا رجل « مطلق » يعيش فى جو « المطلق » ... قد أستطيع أن أدير الأشياء من عَلٍ فى إجمالها ، لا فى تفاصيلها ، فمن أراد أن يشاركنى الحياة عليه أن يتحمل هو جميع الأعباء والمسئوليات ، ولا يترك لى غير مظاهر الشركة ، أو على الأقل مسائلها الكبرى ... ينبغى بالاختصار لزوجتى أن تجعل منى « ملكا دستورياً يملك ولا يحكم » ! ... على أنى فى ذلك أيضاً أحتاج إلى يد بارعة تخفى سلطانها فى قفاز من المخمل الناعم ، وإلى سياسة حاذقة لا تشعرنى بحقيقة الواقع ... أشعرونى دائماً أنى مطلق الحرية ... وأنى صاحب الأمر والنهى ، واسلبونى بعد ذلك ماشئتم من حرية ونفوذ فى أسلوب لطيف غير منظور ... الويل كل الويل لمن يدفعه سوء الطالع أو الحمق وقلة التبصر إلى أن يضع فى قدمى قيداً أشعر بوخزه ! ... ولكن النجاح حليف من يعرف كيف يربطنى ، دون أن أتنبه ، بخيط حريرى دقيق طويل ، أتحرك فيه على راحتى ولا أحس له وجوداً ! ... إنى رجل لا أحب أن أكذب على نفسى ، ولكنى أحب أن يكذب علىَّ الناس ! ...

فضحك صاحبى وقال :

ـــ لا أظن بغيتك مما يستحيل العثور عليها ... ولكنك فيما أرى لم تكلف نفسك حتى عناء البحث ...

ـــ البحث ؟! ... أنا الذى يبحث عمن يضع فى يدى قيداً ... لم يخلق بعد العصفور الذى يبحث عن الصياد ؟! ... ومع ذلك ...

ـــ ومع ذلك ؟ ...

لفظها صاحبى فى لهفة وحب استطلاع ... فقلت له وأنا أحاول التذكر :

ـــ كنت موشكا على الزواج منذ عشر سنوات ... لكن ...

ثم كررت بفكرى راجعاً إلى ذلك العهد وابتسمت ، فقد مرت برأسى صورة ما حدث وما ثنى عزمى عن المضى فى ذلك الأمر ...

ـــ كنت ذات عصر راكباً عربة يجرها حصانان ... وإلى جانبى أحد المهتمين بشئونى ... فرأينا السائق يهوى بسوطه على أحد الجوادين .. فمال من الألم على شريكه كأنه يشكو إليه ، والتقى رأسا الجوادين كأنهما يتساران ... فجعلنا نتحدث فى ذلك ونقول : إن مركبة الحياة كذلك لا يهون من أوجاعها غير أن يربط إليها شريكان يشدان عجلاتها ... ويشجع أحدهما الآخر كلما سلط

عليه القدر سوطاً من سياطه ... ثم قلنا : من يدرى لعل هذا سر ذلك الحظر الذى نراه فى بعض المدن على من يستعمل مركبة ذات جواد واحد ... ثم مضينا فى الاستطراد حتى قلنا : ولماذا لا يسرى الحظر على مركبة الحياة ... وعند ذاك اتجه الكلام إلىَّ ... وصارحنى من معى بأن مركبة حياتى لا ينبغى بعد اليوم أن أجرها بمفردى ... فإنها قد تحمل فوق ما أطيق ، وأنا رجل غريب الأطوار ، قد أسير بها سيراً غير مألوف فأتخبط بها فى طرقات غير ممهدة لا أحفل بسوط سائق ... بل من يدرى لعلى جمحت مرة فأسقطت سائقى فى الأوحال ، وجعلت أنطلق منفرداً بمركبة بلا نور ، أركض بها على غير هدى حتى أرتطم فى جدار ...

وانتهى الأمر بصياح ذلك المهتم بشأنى :

ـــ لا بد من زواجك ...

فقلت له هو أيضاً :

ـــ لا .. إنى لست جواداً من هذه الجياد ... إنما أنا حمار وحشى من تلك الحمر الوحشية ذات النقوش الطبيعية السوداء البيضاء ... ما أجمل منظرها حقا لو شدت إلى عربات المدن ! ... ولكنها لا تطيق أن يمس رؤرسها لجام ! ... إنها خلقت لتمرح فى الغابات وتعيش فى

حرية الطبيعة المتوحشة ... معجزة واحدة تستطيع أن تجعل منها مخلوقات طيعة هادئة نافعة : غادة فاتنة فى يدها سوط من حرير تروضها فى صبر طويل ... وترقص على ظهورها فى حلبة « سيرك » تعزف فيه الموسيقى بحلو الأنغام ! ... فإلى أن توجد المصرية التى تروض حمر الوحش فى غاباتنا الأفريقية فإن أملى فى الزواج قليل ...

فصاح المهتم بشأنى :

ـــ يا أخى لا تعقد المسائل ! ... حمار وحشى أو حمار « حصاوى » ... أهم كلهم حمير ! ... وتزوجوا وعاشوا وخلفوا صبيان وبنات فى أمان الله أربعة وعشرين قراط ! ... دا شىء مكتوب علينا جميعا ... أرجوك تسمع نصيحتى وتسعى جدياً فى الموضوع ! ...

ـــ فى الحالة الحاضرة ... وقتى ضيق ...

فقاطعنى صائحاً :

ـــ اترك لى المسألة ...

ولم يمض شهر حتى وجدت ذلك الشخص الكريم قد خلا بى ووضع فى يدى صورة فوتوغرافية لفتاة ظريفة وقال لى :

ـــ تعجبك ؟ ...

فتأملت الصورة ملياً ثم قلت :

ـــ من أى وجه ؟ ...

فصاح بى :

ـــ اعمل معروف لا داعى للفلسفة ... إن كان شكلها مناسب ؟ ...

ـــ مناسب ...

ـــ انتهينا ...

ثم مدَّ يده إلىّ وقال :

ـــ وصورتك بسرعة ... آخر صورة لك ...

ـــ الصورة الوحيدة الموجودة عندى ... هى صورة جواز السفر ...

ـــ ما تنفعش ! ... قم بنا نعمل لك صورة « جواز » فقط ! ...

وسحبنى من يدى ... وذهب بى إلى محل « مصور فوتوغرافى » معروف ... فوضعنى ذلك المصور أمام لوحة من قماش تمثل ستارة سوداء ، وأراد أن ينزع من يدى العصا ، ليضع هذه اليد فوق « درابزين » مزيف قد آتى به ، فأبيت ذلك عليه ، فرد إلىّ

عصاى ... ونظر من معى إلى وقفتى فلم ترقه فصاح فى المصور :

ــ هو واقف على إية ! ...

فقال المصور :

ــ على سلم ...

فصاح به :

ــ وإيه مناسبة السلم والدرابزين ! ... اجعل وقفته فى جنينة وحط الورد حواليه ، وارفع الستارة المحزنة من جنبه وانصب بدلها خميلة ياسمين أو تكعيبة عنب ! بالاختصار مناظر مفرحة ... ثم مال على المصور ، فأسر فى أذنه كلاما ... فتهلل وجه المصور وقال :

ــ فهمت الطلب ...

ثم أسرع فأحضر ستائر حمراء ومناظر خضراء وأصص أزهار ورياحين وهو يقول :

ــ إن شاء الله أطلعه يحاكى البدر فى سماه ! ...

فأردت أن أظهر عجبى لهذه المعجزة إذ صحت ... فأسكتنى وأوقفنى بين المناظر الرائعة والخضرة الزاهرة ... ودخل هو فى شىء يشبه « البطانية » السوداء يغطى جهاز تصويره ولبث فيه لحظة ثم خرج يصيح :

ـــ واحد ، اثنين ... ثلاثة ! ... مبروك ! ...

فتركت موقفى ... وأقبلت على المصور أوصيه :

ـــ الصور تكون طبيعية ... إياك تعمل « رتوش » ! ...

فما شعرت إلا والمتولى شأنى قد انتزعنى انتزاعا من بين يديه ودفعنى بعيداً وأقبل على المصور يقول له :

ـــ إياك تسمع كلامه ! ...

ثم التفت إلىّ قائلا :

ـــ حد فى الدنيا يقول للمصوراتى ما يعملش رتوش ؟ ... خصوصا لحضرتك ! ...

فقلت :

ـــ على كل حال ، لا بد من كونى أطّلع على « البروفة » قبل كل شىء ! ...

فقال المصور :

ـــ إن تجارب الصورة يمكن الاطلاع عليها فى صباح اليوم التالى..

فغادرناه على أن نعود إليه فى الغد .... ومضى النهار ... وجاء الغد ... فانسللت بمفردى إلى حانوت المصور ... أطلع خفية على تجارب الصورة ... فعرضها علىّ ... فتأملت وجهى فيها ...

فلحظت أن شاربيَّ غير متساويين فى الطول ... وأن شارباً أقصر من شارب ... فتباحثنا فى علاج ذلك ... وقلت له إن « الرتوش » الوحيدة التى آذن بها هى أن يمد ريشته إلى الشارب القصير فيطيله حتى يساوى أخاه ... وانصرفت ... وانتصف النهار .. وقابلت بعد ذلك المهتم بشأنى ... فقصصت عليه ما حدث من أمر الشارب ... فما زاعنى إلا قوله إنه مر هو الآخر بحانوت المصور عقب انصرافى . فلما علم بمسألة الشوارب ، أمر المصور أن يزيلها كلها وكفى الله المؤمنين شر القتال ... فما إن سمعت منه ذلك حتى صحت فى وجهه :

— يزيلها كلها ! ...

— إيه المانع ؟ ...

— أنا بشوارب ، تعملونى من غير شوارب هذا العمل اسمه تزوير .

— يعنى لا سمح الله قمنا زورنا فى كمبيالة ! ...

— هو التزوير لا بد يكون فى كمبيالات ؟! ...

— كان غرض حضرتك إن أهل العروسة يقولوا مقدمين لنا عريس « بشنب ودقن » ؟! ...

— نقوم نلجأ للغش ؟!

— وانت فاهم إن صورة العروسة خالية من الغش ؟..

— شيء عجيب ! ...

— مؤكد ... شيء مفهوم مقدما ... وفى المستقبل يتضح لك إن ما عملناه أقل مما عملوه بمراحل ... اطمئن ! ...

فقلت من فورى :

— الحمد لله اطمأنيت ... إذا كان مجرد « الشكل » وضعناه على هذا الأساس ، يبقى « الموضوع » ...

فقاطعنى :

— لا ... « الموضوع » مضمون أربعة وعشرين قيراط ، ثروتها معروفة وتحرياتنا صحيحة ... وأنت حالتك المالية واضحة ...

— دا كل قصدكم من « الموضوع » ؟ ...

طبعاً ... فيه شيء غيره ؟ ...

فلم أطق صبراً ، فقمت دون أن أجشم نفسى مشقة الجواب ... وذهبت ... وقد ذهبت عنى فكرة الزواج إلى اليوم .. و لم يعد شبحها يظهر إلا مقترناً بذكرى هذا الحوار بنصه وألفاظه كما سمعتها، فكانت ذكراه تقصينى من فورى عن المضى فى التفكير ... فهذه

الشركة النبيلة بين روحين تعاهدا على السير جنبا إلى جنب فى طريق الحياة الشاقة الطويلة ، ما زالت تقام فى أغلب الأحيان على هذا النحو المخجل ... وإذا صلحت هذه الطريقة لكثير من الناس ، فهل تصلح لشخص مثلى قد تتأثر حياته الفكرية وإنتاجه الذهنى إلى حد كبير بشخصية الشريك ؟! ... لذلك آثرت السلامة ... وأحجمت عن المغامرة ، خشية الوقوع فى غلطة تفسد علىَّ الحياة كلها ...

ورجعت إلى وحدتى ... تلك الوحدة الباردة التى تحيط بى من كل جانب ... فما أنا فى الحقيقة دائماً سوى كوخ مقفر وسط صحراء من الجليد ، وضعت داخله يد المصادفة إناء يغلى ويتصاعد منه بخار ، هو تلك الأفكار ، التى تخرج من نافذتى إلى حيث تصل أحيانا إلى جموع الناس ... فإذا دخلت امرأة هذا الكوخ فمن يضمن لى ما سوف تلقيه فى هذا الإناء وما يتصاعد من جوفه بعد ذلك ! ...

* * *

وهكذا قضيت حياتى متنقلا ، تائها ليس لى مكان معروف ... ولا عنوان دائم ... فما تركت فندقا لم أنزله ولا نزلا لم أهبطه حتى ضجرت ذات يوم وتبرمت بهذه الحال ، واستنكفت أن أعيش دائماً

هكذا كما تعيش الفكرة الهائمة والروح الحائرة ... فأردت أن أجرب الحياة المستقرة فى مسكن ثابت اخترته فى بقعة جميلة من بقاع القاهرة ... يشرف على النيل ، وترى من نوافذه القلعة والأهرام وعنيت بأثاثه ، وأعددت فيه مكتباً أنيقاً وخزائن للكتب ... واقتنيت سيارة ... وأقمت بمفردى وحولى خادم وطاه وسائق ...

فماذا حدث ؟ ... لم أتحمل الحياة فيه عاما ... فقد كاد الخدم الثلاثة يذهبون البقية الباقية من عقلى ... فالخادم النوبى جعل يكسر « أسطواناتى » الثمينة ... وتحريت أمره فعلمت أنه يتربص بى حتى أخرج فى الصباح ، فيدير « الجراموفون » ويضع ما يقع فى يده من أعمال « بيتهوفن » و « موزار » ... ولا يحلو له تنظيف « الباركيه » وطلاؤه إلا على هذه الأنغام ...

أما الطاهى فقد كان يبدى الابتكار فى ألوانه أول الأمر ... ثم قصر وتراخى حتى صار الطعام ضربا من الروتين لا طعم له .. فكنت أحياناً أترك المنزل بما أعد لى فيه وأذهب إلى مطاعم المدينة ... ولقد كان للخدم دائما طعام غير طعامى ... هو فى أكثر الأحيان ألذ وأمتع .. ولطالما أمرت الطاهى أن يحضر لى مما فى قدورهم ويحمل كل هذه الألوان التى نسقها تنسيقاً ظاهراً دون أن يضع فيها روحه

وليس هذا كل شيء ... فقد علمت أن الطاهي يعد على حسابي قدراً كبيراً من الطعام يقدمه بالأجر إلى بوابي الجيران ، وأن الخادم يدعو جميع زملائه النوبيين كل عصر عقب انصرافي إلى تناول الشاي ... ولم يدهشني ذلك فإن نفقاتي بمفردي كانت دون أن أدري نفقات أسرة مكونة من عشرة أعضاء وما نبهني إلى ذلك إلا ضيف عابر ... على أن كل هذا لم يغضبني كثيراً ... إنما الذي أثارني حقا مسمار صغير وجدته يوما في لون من ألوان الطعام ، كدت أزدرده ... هنالك لم أطق صبراً ... وعلمت أن الخدم بلا رقابة هم خطر من الأخطار العامة ... وما ملكت نفسي عن الصياح فيهم يوماً : « والله لأتزوج لكم وأمري إلى الله ! ... » .

أما السائق فلا يريد أن يصغي إلى رجائي كلما طلبت إليه ألا يسرع ... فأنا أبغض السرعة ... إنها تمنعني من التفكير . ولطالما أكدت له أني لست متعجلا شيئا ... ولا شيء في الوجود يستعجلني ... فأنا عدو الزمن والوقت ، ولم أحمل ساعة قط ... فالوقت عندي ليس من ذهب بل من تراب كأجسامنا ... ولكنه ينطلق بي رغم ذلك ، كأنما يريد أن يطرحني في أسرع وقت ، ليخلص مني وينصرف إلى شأنه ... فكنت أتركه أحياناً يقف

منتظراً فى جانب الطريق ... وأسير مفكراً حراً حيث أشاء ... ثم أدرك أخيراً أنى لا أحب السهر وأنى شديد الكسل وأنى أكتفى بعبارة أقولها له كل عصر ... « اطلع جهة فيها هواء نقى » « فين ؟ ... » « أى جهة تختارها » فيمشى بى حيث يريد هو ، دون أن أعترض ... ويقف بى أحياناً حيث يشاء ويقدر أن المناظر جميلة والهواء منعش ، فلا أتكلم .. فإن فكرى منصرف دائماً عنه ، ما دام لا يسرع بى ولا يقول لى : « تفضل » إلا أن يرى أن الأوان قد آن للتحرك فيقودنى إلى حيث أتناول الشاى أو العشاء فى الأماكن المعتادة ... فإذا أمرته فى المساء أن يذهب بى إلى السينما ... فقد عرف ألا يسألنى أيها ... بل يمضى بى طائفاً على جميع الدور ... فيقف أمام كل باب من أبوابها لحظة ، فإذا نزلت فقد انتهت مهمته وإذا لم أنزل فإنه يتحرك إلى غيرها ... وإذا مر بجميعها فلم أغادر السيارة فإنه يعود بى من تلقاء نفسه إلى المنزل ويقول لى : « تفضل » فأنزل فى صمت ... وقد شعر بقدر هذه السلطة الواسعة فى يده فاستغلها آخر الأمر استغلال الطاغية لحرية الشعب ... فكان إذا أراد أن يفرغ من عمله مبكراً ويخلص إلى شأن من شئونه ، طاف بتلك الأماكن طوافاً سريعاً لا يكفى لإيقاظى من

تأملاتى أو إخراجى من ترددى ثم ردنى إلى منزلى ولما تدق التاسعة قائلا « تفضل » فأنزل دون أن أتنبه لما حدث ... وفطنت ذات ليلة إلى إرادته ... وكانت بى رغبة فى السهر ... فما تمالكت أن ثرت لحريتى المسلوبة وصحت :

ـــ « انت غرضك تنومنى المغرب ! ... قسما بالله العظيم ما انا نازل » ...

* * *

هكذا كان شأنى فى المسكن الخاص بين أولئك الخدم ... وقد لبثت على هذه الحال زمنا ... اختمرت فيه داخل نفسى جراثيم الثورة الكبرى على هذا النظام فبيت النية ذات ليلة على خلع نير هؤلاء الذين يسمون أنفسهم خدما لى ... فلما كان الصباح أعددت حقائبى ... واستدعيت البواب وطلبت إليه أن يبحث عمن يحل محلى فى هذا المسكن بأثاثه ورياشه ... فأتى إلىّ برجل إنكليزى وزوجته فتركت فى عهدتهما كل شىء حتى كتبى ... وغادرت ما فى البيت من أشياء خصوصية ومن مؤونة حتى زجاجات المياه المعدنية وعلب الجبن والزبد والمربة واللبن والشاى والفطائر وطردت خدمى ... واستغنيت عن سيارتى ... وانطلقت بمفردى حراً من جديد ...

أنتقل فى الفنادق وأطوف بالشوارع ، وأقفز إلى عربات الترام وسيارات الأتوبيس ، وأختلط بالناس ، وأمتزج بالجماهير ... فأحسست كأن الدم يعود حاراً إلى عروقى وأن قدمى قد فرحتا بلمس الأرض من جديد ، وأن فكرى قد عاد إلى انطلاقه ونشاطه مع السير الحر بالأقدام فى كل مكان ، وملاحظتى الناس فى الطرقات قد أخصبت ذهنى الذى حبس طويلا خلف الزجاج ... وجعلت أقف على بائع الذرة وهو يشوى كيزانه على عربته الصغيرة فأحادثه وأباسطه ، لا يتعجلنى سائق ولا تنتظرنى سيارة ، وأصغى إلى حديثه الطويل فى ذلك الليل مع كناس الجهة ... فأشترك معهما فى الحديث والسمر ... ورأيت الكناس يسامر البائع طمعا فى كوز ... والبائع لاه عنه لا تخطر له العزومة على بال ، « فإن الشغل شغل » فى عرف التجار ... فشريت أنا كوزين أعطيت الكناس واحداً واستبقيت لنفسى الآخر ... فدعا لى الكناس الدعوات الصادقات .... وجعل يأكل ويقص علىّ مما عنده من أحاديث العامة البريئة اللذيذة ...

عرض هذا الشريط كله فى رأسى عندما سألنى المخرج ذلك السؤال ... ولم أجيه بشىء غير تلك الابتسامة التى أثارتها هذه الذكريات ...

١١

وأدركتنا تباشير الصباح فسكت عن الكلام المباح ... وانقضت حاجتى إلى إمساك صاحبى ... فهو حر الساعة يذهب حيث شاء ويصنع ما يشاء ... وأذن الفجر فى زاوية القرية ، وأبصرنا الفلاحين يهبون ناهضين فوق الأسطح ، ويخرجون من الدور يسوقون الماشية إلى الغيطان ... وسمعنا صوت المصور يصيح بنا من أسفل المنزل يدعونا إلى مشاهدة تصوير الشمس الطالعة ... ووجدنا زوجته النشيطة قد قامت تأمر وتنهى الخدم ، وتباشر غلى الحليب وإعداد الفطور ...

وما كدنا نفرغ من تناول القهوة واللبن حتى نهضنا إلى العمل ... وتذكرت الجحش فأوفدت فى الحال من يطلبه فى دار العمدة ... فجاءوا به يقولون إنهم قد عرضوا عليه كل أتانة والدة وحبلى فى القرية ، فما قبل أن يدنو من ثديها ، وأصر على هذا الصوم الصوفى

وأكدوا لنا أنه سيموت لا محالة فصاح المخرج :

ـــ أعدوا الكاميرا حالا ولنلتقط « للفيلسوف » صورة قبل أن تحضره الوفاة ...

وأجلسونى فى الجرن خلف كوم القمح ودفعوا « الجحش » الهزيل إلى جوارى ... فوقف المسكين كما أرادوا له أن يقف ، دون أن يتململ أو يتحرك ، ورأى أنى قد بسطت كفى مفتوحتين فى حجرى فتقدم ووضع رأسه بين هاتين الكفين ، فصاح المخرج فرحا :

ـــ هذا موقف رائع ... إن « الفيلسوف » يفكر مضطراً واضعاً رأسه فى كفيه ...

فقاطعته محتجاً :

ـــ إنهما كفَّاى أنا ...

فقال المصور وهو يلتقط المنظر :

ـــ لا فرق ، أعنى ... لا بأس ... ولا ضرر ...

لا فرق ؟ .. لا ... بل إن هناك فرقاً ... إن هذا « الفيلسوف » أجدر بهذا الاسم منى لو أنى كنت حقاً فيلسوفاً ... فهو لا يبدو عليه أنه معنى بما يصنع به ... إن منظر الكاميرا لم يثر استطلاعه ولا اهتمامه

كما فعلت المرآة ، فالمرآة تجعله يعرف نفسه بنفسه ...

وهو كل ما يسعى إليه ، وهو غرض الفلاسفة فى كل زمان ومكان ... أما الكاميرا فهى الصورة التى يأخذها الناس عنه ... وماذا يهم الفيلسوف الحق أن يعلم رأى الناس فيه ! ...

وفرغوا من أمر تصويرنا ... وسلمنا « الفيلسوف » لأحد الفلاحين فأعاده إلى حيث ينتظر فى سكون قضاءه المحتوم وسرنا طول يومنا ، نضرب فى الحقول والغيطان ... حتى كادت تتخلع مفاصلى ... أما أصحابى فلم يبد عليهم تعب ولا كلال إنما هم جن وعفاريت قد سلطها الزمان على هذه القرية وعلى حيواناتها وعلىَّ ... فما من ثور أو جمل إلا صوروه ... وما من محراث أو نورج إلا التقطوه ... وما من شيخ غريب السحنة أو يافع قوى البنية أو فتاة غضة بضة إلا أوقفوها وصوروها وحيروها وأتعبوها ... ثم نقدوا كل هؤلاء قروشاً جديدة لامعة أتوا بها خصيصاً لهذه الغاية ... حتى اجتمع حولنا شيوخ القرية وفتياتها وأطفالها وثيرانها وخرافها وإبلها ودجاجها ... كل يصيح قائلا : (صورونا) (والنبى تصورونا ! ...) (هات قرش يا خواجه وصور العيال ! ...) .

وتركتهم آخر الأمر يفعلون ما يريدون ... وجلست القرفصاء على قارعة الطريق الزراعية ... أنتظر ساعة الفرج ... وأقول فى نفسى :

ـــ آه ... لو طلت الأتومبيل ... ووضعت رجلى فيه ...

١٢

وجاء العصر أخيراً ... فنبهت صاحبى إلى ساعة عودتى ... وذكرته بالموعد الذى يقتضى وجودى فى القاهرة ذلك المساء ... فأمر فى الحال الخدم فأعدوا السيارة ... وأسرعت إلى حقيبتى الصغيرة فدفعتها إلى من حملها ... وودعت الجميع وقلت على سبيل المجاملة إنى عائد إليهم فى أقرب فرصة ... تسنح ، وأوصى المخرج مساعده أن يقودنى إلى فندق ... وأخبرنى أنه سيحضر القاهرة هو الآخر بعد يومين أو ثلاثة ، وسيزورنى وأوصانى أن أضع همى الآن كله فى مسألة الحوار ... ورجا أن أصنع الآن شيئاً وقد رأيت هذه البقعة من الريف والمواقع التى ستجرى فيها القصة ... وأكد القول إنى أنا الآن وحدى الذى يحول دون البدء فى عملية الإخراج ... فكل شيء جاهز : فالسيناريو موضوع ، والمواقع معروفة ... والوجوه موجودة والممثلون حاضرون ، وألوف الأشرطة الخام قد أرسلتها الشركة وهى تحت أمر المخرج فى مخازن كوداك ... كل شيء

قد تم إلا الحوار ... فطمأنته فى كلمتين ... وصافحنى مصافحة شديدة وتركنى أصعد إلى السيارة ، وانطلقت فتنفست الصعداء ...

* * *

بلغت الفندق فى أول المساء وقد أنهكنى التعب وأجهدنى سهر تلك الليلة الملعونة ... فصعدت من فورى إلى حجرتى فخلعت ملابسى المعفرة بالتراب الآهلة بالبراغيث ، ودخلت الحمام ... ولبثت فى الماء الدافئ ساعة ثم خرجت منه إلى فراشى ، فنمت نوماً عميقاً لم أتنبه منه إلا فى صباح اليوم التالى ...

ومضت حياتى بعد ذلك على وتيرتها المعتادة ... فنسيت ما كان من أمر هذه القصة وما يكون ... وتناهبتنى المشاغل المختلفة ... ومرت الأيام فما راعنى إلا صاحبى المخرج يستأذن علىّ عصر ذات يوم ... فلما ضمّنا المجلس ... بادرنى قائلا فى صيحة فرح :

ــ لقد وجدنا « أمينة » رائعة ! ...

فقطبت جبينى :

ــ أمينة ؟ ...

ــ بطلة القصة ...

ـــ آه ... !

ـــ انظر ...

وأخرج من جيبه صورة فوتوغرافية لفتاة ريفية باهرة الجمال حقاً ، فتأملتها ملياً وقلت له :

ـــ أين عثرت عليها ؟ ...

ـــ لا أخفى عنك الحقيقة ... لست أنا الذى عثر عليها ... لقد بحثنا عبثاً فى القرية التى فيها والقرى المجاورة عن وجه صالح فالتجأنا آخر الأمر إلى شيخ العرب (...) المتعهد المعروف لشركات أوروبا وأمريكا ، وهو يقيم على مقربة من الأهرام ... وقد اعتاد توريد الوجوه والخيول والإبل ، وأفراد الكمبارس لجميع الأفلام التى تصور مصر والشرق والبدو والصحراء ... ولقد جئتك اليوم بالذات ... أدعوك إلى خيمة الشيخ غداً حيث يعرض علينا فرسان البدو ألعاباً ... ويقدم إلينا كثيراً من الفتيان والفتيات لنختار من بينهم بقية الأشخاص المطلوبة ... ينبغى إذن أن تكون موجوداً معنا لهذا الغرض من الصباح الباكر ..

فتمثل لى شبح الجهد الذى أضنانى يوم ذهبت معهم إلى الريف ، فصحت :

ـــ هذا مستحيل ...

وأبديت أعذاراً شتى وتذرعت بحجج كثيرة ... فما وسع الرجل إلا أن أطرق أسفاً ثم قال :

ـــ لا أقل من أن تحضر إذن وليمة العشاء ...

ـــ أى عشاء ؟ ...

فأخبرنى أن المتولى الأمور المالية والإدارية لهذه الشركة قد أعد خيمة بجوار الأهرام ... ودعا إلى العشاء مساء الغد بعض أفراد الجاليات الأوربية المتصلين بشئون الفن ... فقلت له :

ـــ ولا هذه أيضاً ... فأنا لست رجل مجتمعات ولا فائدة ترجى لكم منى ذلك المساء ... فدعنى وشأنى ... فأصر ... وقال إنها نزهة لن تستغرق أكثر من ساعتين ... وإنه سيبعث إلىّ السيارة تحملنى من الفندق قبل الثامنة ... ثم نهض مستأذناً فى الانصراف قائلا :

ـــ إلى الغد ...

وذهب فسرنى منه أنه لم يذكر شيئاً عن الحوار.. فقلت فى نفسى إن تلطفه بى ينبغى أن يقابل منى بمثله، ووطنت العزم على أن أخصص عصر اليوم التالى لدراسة قصته.. وجاء الغد.. فابتليت بما صرفنى

كالمعتاد عن هذا الأمر ، إلى أن دخل المساء ، فمكثت فى حجرتى وخلوت إلى نفسى وقد فرغت من ارتداء ثيابى ... ورأيت الفرصة سانحة فأخرجت أوراق السيناريو ... وتحاملت على نفسى ، وجعلت أطالع والحر يسيل عرقى من جبينى ... والمعانى إذا كانت هناك معان ، تذوب قبيل أن تبلغ ذهنى ... فما أنقذنى مما أنا فيه غير التليفون ينبئنى أن السيارة بباب الفندق فى انتظارى ... فأعدت السيناريو إلى مكانه ، ونزلت توا ، فركبت وانطلقت ... إلى أن وقفت بى السيارة أمام خيمة قد ضربت فى صحراء الأهرام ... فهبطت واتجهت إليها ، فرأيتها تعج بالمدعوين والمدعوات ، وقد تبين لى أنى أعرف أكثرهم من قبل ... وكانوا قد نصبوا المائدة خارج المضرب ... ووضعوا المقاعد الطويلة على الرمال ... فاضطجع عليها من أراد الاضطجاع ، ودنا من المائدة مَن رغب فى الطعام والشراب وعلا المرح والضحك وطابت الأحاديث وحلا السمر . وجعل المخرج يعلن فى كل مناسبة أنى واضع الحوار ، كأنما يريد أن يضعنى موضع الحرج ...أو يبتغى مأرباً لم أتبينه ... على أى الحالين فقد ألب الكثير من الحاضرين علىّ وجعلهم يقولون فى شيء من الرضا والاغتباط والتأييد :

ـــ لقد جذبتك الآن السينما ! ...

فلم أدر بماذا أجيب ؟ ... فهمهمت بكلام غير مسموع ثم انسللت من بين الجميع وانطرحت فوق مقعد طويل أتأمل الصحراء الممتدة أمامى كأنها البحر ، وأرى ضوء القمر يلاعب رمالها المتموجة فيخيل إلىّ أنها الأمواج ... وأغمضت عينى لإخداع نفسى فأتصور أنى مستلق على مقعدى فوق ظهر الباخرة إلى أوروبا الجميلة ... وشعرت بصوت شخص إلى جوارى على مقعد طويل خال ... فالتفت ... فإذا سيدة من المدعوات تريد أن تحادثنى ... ولم تضّع وقتاً فقالت :

ـــ إنك تحب الوحدة ..

فقلت دون أن أتحرك وكأنى أخاطب نفسى :

ـــ إنها كتبت علىّ ...

ـــ إنى أراك تهرب من الجميع ...

ـــ قبل أن يهربوا منى ...

ولزمتُ الصمت ، فلم تدر كيف تمضى فى الحديث فنظرت إلى السماء وقالت :

ـــ إن القمر جميل ...

ــ هذا صحيح ...

و لم أقل أكثر من ذلك فسكتت السيدة قليلا ثم قالت :

ــ لقد قرأت أحد كتبك ، فألفيته فياضاً بروح الدعابة والفكاهة والحديث الطلى ... فتصورتك كذلك فى الحياة والحقيقة ...

ــ آسف أنى خيبت ظنك ...

ــ كلا ... لم يخب ظنى ... إنما أنت كالقمر تضىء عن بعد ...

فبادرت أتم عبارتها :

ــ فإذا دنوت منه وجدته جسماً معتماً ...

فأسرعت تقول فى صوت المعتذر :

ــ عفواً .. لم أرد الذهاب فى التشبيه إلى هذا الحد ...

ــ ينبغى ذلك حتى يكون للمقارنة صدقها وبراعتها وتلك مع ذلك هى الحقيقة فى واقع الأمر ...

ــ إنك تغلو فى الحكم على نفسك ..

ــ لا ...

ــ إنى أراك الآن مثلا قد بدأت تخرج حديثاً شيقاً ...

ــ لأنك عرفت كيف توخزين موضعاً من المواضع التى يعنينى الكلام فيها ... إنى مثل الثعبان الكسول فى أيام الشتاء يظل ملتفا

حول نفسه وقد برد دمه وتجمد ... فلا توقظه إلا وخزة تخرج من فمه السم ... هنالك مواضيع إذا وخزني فيها واخز لا بد أن أفرز كلاما ... ثم أعود بعدها إلى صمتي ووحدتي والتفافي حول نفسي ...

ـــ وما هو هذا الموضوع الذي وخزتك فيه الآن ؟ ...

ـــ نفسي ... أتريدين أن أبرز لك صورة من نفسي كما أراها ؟ ... إني بناء قائم على ماء جار ... وصرح مشيد فوق رمال ... لا شيء عندي قابل للبقاء أو صالح للاستمرار ... إني لا أقدس شيئا ولا أحترم أحداً ولا أنظر بعين الجد إلا إلى أمر واحد : الفكر ... هذا النور اللامع في قمة هرم ذي أركان أربعة : الجمال والخير والحق والحرية ... هذا الهرم هو وحدة الشيء الثابت في وجودي ... إني كما ترين لست رجل مجتمع ... فأنا لست بارع الحديث ولا حاضر الذهن ، ولا ظريف المجلس ، ولا أصلح للكلام في الناس ، إذا حضرت وليمة فلا ينبغي أن ينتظر مني الحاضرون أكثر مما ينتظرون من طيف يصغي ويلاحظ إذا شاء وقتما يشاء دون أن تسلط عليه أنوار تكشف عن وجوده ... لقد اختلف في أمري من قديم كل من عرفني ، وما زالوا يختلفون ... فأنا عند البعض بسيط

ساذج ... وعند الآخرين ماهر ماكر ... قال لى ذات مرة أحد الملاحظين لأمرى : عجباً لك .. إنك تجهل الأشياء التى لا ينبغى أن يجهلها أحد ، وتعرف الأشياء التى لا يعرفها أحدا ! ... » وقالت لى صاحبة نزل أقمت أياماً : « اسمح لى أن أستوضحك أمراً أحاول عبثاً أن أستقر على رأى فيك ، إنه ليبدو عليك أحياناً أنك لا تعرف ما تريد ... بل يبدو عليك ، وأرجو أن تغفر لى هذا التعبير ، إنك قليل الفطنة، بسيط التفكير، ولكنك أحياناً أخرى تبدو فوق مستوى من رأيناهم جميعاً هاهنا إدراكا وتيقظاً وتفكيراً، أنت ولا شك لغز من الألغاز!...» فى كل مكان أسمع من يقول عنى ذلك... من أجل هذا فقدت حياتى ذلك الوضوح الذى تقام عليه الحياة الثابتة... ولقد تأثرت بهذا الغموض فى تكوين شخصيتى، فجعلت أطيل البحث فى ذلك أنا أيضاً... فجنحت إلى التأمل الطويل منذ الصغر.. وتقدمت بى الحياة... فكنت فى كل طور من أطوارها أستوثق من أن الطبيعة قد ترددت هى الأخرى فى أمر تسليحى بهبات واضحة قاطعة... لقد كان شأنى دائماً شأن «جحش» عثرنا عليه ثم أطلقنا عليه اسم «الفيلسوف» خرج إلى الحياة منذ يومين فانصرف عن «زجاجة اللبن» إلى مرآة الخزائن يتأمل نفسه!...

أنا كذلك انصرفت منذ عهود الصبا عن مباهج الحياة التى تغرى الشبان والفتيان إلى تلك المرآة التى أرى فيها نفسى ... على أنه تأمل . هو أبعد ما يكون عن تأمل « نرسيس » لنفسه فى مياه الغدران ... لم يكن تأمل الزهو والافتتان ... بل تأمل الباحث الحيران ... إنى من أشد الناس تنقيباً فى أنحاء نفسى ... لأنى أعتقد أن الطبيعة لم تسخُ علىّ ... فلم تمنحنى لمعاناً ولا بريقاً ... إنى جسم معتم أضىء كما تقولين بما ينعكس على أديم نفسى من أفكـار ... ولا شىء غير ذلك .. أما فى الحقيقة فأنا أرض قحلاء جرداء كلها صخـور وأحجار ، لا يمكن أن يأنس إليها آدميون ... هل سمعت بأحد يعيش فى المجتمع بلا أصدقاء ... أنا أعيش منفرداً بلا أصدقاء لا أرى أحداً إلا لماماً ، للتحدث قليلا فى شئون الأدب أو الفكر أو الفن ... أناس من أهل مهنتى ... تقضى الضرورة أن ألقاهم ... أما أكثر أيامى فأنا بعيد عن المجتمع ، لا أسأل عن أحد ولا يسأل أحد عنى .... لأنى لا أملك صفة من تلك الصفات التى تجذب الناس إلىّ أو تغريهم بصحبتى ... فإذا أنفقت الوقت بحثاً وتنقيباً فى أرجـاء نـفسى الموحشة المقفرة فإنما يدفعنى إلى ذلك الأمل فى أن أستكشف فى بعض شعابها معدناً نفيساً له شىء من البريق ...

وسكتُ ... ولم تجرؤ السيدة على الكلام ... فقد بدا عليها بعض التأثر ... وأرادت أن تقول شيئاً ... وإذا أحد المدعوين يقبل عليها فيشاغلها بالحديث ... وأطبقت أنا عينى واستسلمت لتخيلاتى ... وتعاون الليل الجميل مع النسيم اللطيف فحملا النوم إلى جفونى فما شعرت بشىء حولى ... إلا وقع غطاء خفيف من الصوف قد ألقته على جسمى يد رفيقة ... ثم همسات تصل إلى وعيى بين ساعة وأخرى كلما خفت إغفاءتى لسبب من الأسباب ... وكان يخيل إلىّ أحياناً أنى أسمع بعض الحاضرين يقول :

ــ أهُوَ نائم ؟ ...

فيقول صوت عذب لإحدى السيدات :

ــ كنت أريد أن ألقى عليه سؤالا ...

فيجيبها صوت آخر :

ــ لا توقظيه ... إن نومه عميق ...

فتقول :

ــ عجباً له ... كنا نحب أن يتحدث إلينا ... ولكنه قضى السهرة ... غير ساهر ...

فأجابها صوت أعرفه :

— إنه كذلك فى أكثر الاجتماعات التى شاهدته فيها : حاضر وغائب ... ومعنا وليس معنا ...

ثم انصرفوا إلى شأنهم وضحكهم ومرحهم ، إلى أن ذهب أكثر الليل وحانت ساعة الأوبة ... ووجدوا ألا مناص من إيقاظى ... فأيقظونى ، وأعدوا مكانى من السيارة ، فودعتهم وأنا نصف يقظان ...

١٣

زارنى صاحبى المخرج فى اليوم التالى وقال لى فى نبرة يخالطها شىء من السخرية الخفيفة :

ــ أرجو أن تكون قد نمت نوما هنيئاً فى سهرة البارحة ... فقلت له :

ــ لعل ذلك لم يضايق ضيوفك ...

ــ مطلقاً ... لو حدث ذلك من غيرك لكان له معنى آخر أما أنت فتستطيع أن تفعل ما تشاء ...

ــ ماذا تقصد ؟ ...

ــ أقصد أن للفنان حرية لا يتمتع بها الآخرون ، لقد كان المصور الشهير « بيكاسو » يحضر بعض الحفلات الساهرة برداء العمل الملطخ بالأصباغ فى حين أن الآخرين ما كان يباح لهم الحضور بغير « الفراك » ...

ـــ شكراً على هذه الحجج الكريمة والأعذار الجميلة التى تنتحلها لى ...

ـــ بل هو الواقع ... لم يكن لى عليك إلا مأخذ واحد ! ...

ـــ واحد فقط ؟ ...

ـــ نعم ... لقد أثرت عن عمد موضوع الحوار ... وكنت أحسبك تتكلم قليلا فى الحاضرين ...

فقاطعته :

ـــ أنا أتكلم فى الحاضرين ؟! ... من قال لك إن من طبيعتى أن أتكلم فى حاضرين أو غائبين ...

فقال وهو ينظر إلىَّ ملياً :

ـــ كنت أجهل طبيعتك ... أما الآن فقد فهمت ... ؟ إنكَ لا تتكلم فى الناس ... ولكنك تصنع الحوار الذى ينبغى أن يتكلم به أشخاص قصتك ...

فنظر إلىّ نظرات القلق وقال :

ـــ أوَلا تستطيع ذلك ؟ ...

ـــ لا أستطيع ...

فبدا عليه أنه لم يفهم عنى ... ولبث ينظر إلىَّ نظرات الاستفهام

وينتظر إيضاحا ... فقلت له :

ـــ لقد تبين لى شيء كنت أجهله قبل أن أراك : إن الكاتب الحق لا يمكن أن يلذ له العمل للسينما ، ذلك أن السينما تخضع كل شيء لإرادة المخرج ... فمخرج السينما هو المنسق لكل شيء ، وهو الخلاق الذى يطبع العمل كله بطابعه ... فما صانع السيناريو وما واضع الحوار وما مهندس المناظر والأصوات وما المصورون وما الممثلون ... إلخ إلخ إلا عناصر متفرقة وأجزاء أشتات ، المخرج جامعها وموحدها وموجهها إلى حيث يصبها فى القالب الذى يريد ... مثله مثل الكاتب فى ميدانه ... فالكاتب الحقيقى هو أيضا ذلك الذى يخضع كل شيء لمشيئته ، هو الذى يجمع الصور والمشاهدات والملاحظات والتجاريب الشخصية وحوادث المجتمع وأخبار التاريخ وأساطير الأقدمين ، ويستخلص من كل هذا أو من بعضه عناصر وأجزاء يؤلف من بينها عملا فنياً واحداً قائماً بذاته ... إن الكاتب الحقيقى ليس ذلك الذى يرصف فى لغته جملا فخمة وعبارات جميلة ، إنما هو ذلك الذى يخلق عالما زاخراً بالأشخاص التى تحيا وتسعى وتشعر ... دون أن يحتاج فى إنشاء هذا العالم إلى غير قلمه وحده ... فشكسبير وموليير ، وجوته ، كتّاب حقيقيون لأن

قصصهم التمثيلى استطاع أن يبرز للإنسانية عوالم هائلة رائعة تقوم بنفسها بمجرد القراءة دون الالتجاء إلى مسرح وممثلين ... ولو أن آياتهم وآثارهم احتاجت كل الاحتياج إلى التمثيل لتقوم على أقدامها لمّا سميناهم كُتّابا ... الكاتب الحقيقى هو دائما كل لا جزء ... بل إن طبقات الكتّاب تختلف باختلاف قدرتهم على هذه الكلية وهذا التمام ... فالكتّاب العظام فى نظرى هم أولئك الذين منحتهم السماء كل مفاتيح المشاعر البشرية . فهم قديرون على الإبكاء والإضحاك والارتفاع بالمشاعر والأفكار إلى قمم الخيال والشعر والتصوف ، والهبوط.. بها إلى أرض الواقع والطبيعة الدنيا ... من أجل ذلك كان أيضاً هؤلاء الثلاثة الذين ذكرتهم كتاًبا عظاماً كاملين ، فشكسبير فى كوميدياته ودراماته وشعره ، قد طاف بكل ما عرفه الإنسان من مشاعر وتألقت أعماله بكل أشعة الكون الفكرى المعروف ، وكذلك موليير قد أثبت فى بعض قصصه أنه قدير على الجدْ قدرته على الهزل ... أما جوته فهو العبقرية الجامعة الكاملة ... فى حين أن كثيرين غيرهم اقتصرت عظمتهم على ناحية من نواحى الإحساس الإنسانى ، فجاءت عوالمهم التى خلقوها كواكب رائعة باهرة سابحة هى الأخرى فى الكون الفكرى ، ولكن أشعتها لا تحتوى على كل ما

فى قوس قزح هذا الكون من ألوان وأضواء وأنوار ... ثم إن الكاتب العظيم كالمخرج السينمائى يستطيع أن يضع طابعه على أعمال أجزاؤها ليست من صنعه ... فشكسبير قد هبط على كثير من القصص الإيطالى ، وموليير على كثير من القصص الأسبانى ، وجوته على كثير من أساطير القرون الوسطى .. فالكاتب العظيم كالفاتح العظيم يقع أحياناً على أرض ليست له ، فيخضعها لسلطانه ، ويقر فيها نظمه وأحكامه ، ويصبغها بلون تفكيره وحضارته ، ثم يضع عليها راية عبقريته ليعترف بها التاريخ ...

وأطرقت فى صمت ... فالتفت إلىّ صاحبى قائلا فى صوت حزين :

ـــ والنتيجة ؟ ...

فنهضت وأحضرت أوراق قصته فدفعتها إليه ... وأخرجت دفتر الشيكات وقلت :

ـــ النتيجة أن أرد مالكم ونفسخ العقد ...

فوجم الرجل ... وأطرق لحظة ... ثم رفع رأسه وقال :

ـــ أرجو أن تتريث قليلا وأن تسمح لى أن أغلظ لك فأقول إنك أكسل من رأيت ... وإن كل هذا الكلام الذى قلته الساعة ليس

سوى حجج تؤلفها لتدفع عنك عبء هذا العمل ولكنى أحب أن تفكر فى الأمر ملياً ... لأن انسحابك صدمة لى لن ترضيك ...

ففكرت قليلا ثم قلت :

ـــ لعلك مصيب ... وربما كان الحر والتعب وجهد العام ... على كل حال ... لا أمل لى فى العمل هنا ... وموعد السفر قد دنا ... فإذا رأيت أن أحمل السيناريو معى إلى سويسرا : فإنى واثق أن الحوار يتم فى خلال أسبوعين فوق تلك الجبال الجميلة والبحيرات الرائعة والهواء النقى ... وأن المواصلات بالطائرات يسيرة سريعة ... فإذا شئت فإنى أبعث إليك ما أصنعه أولا بأول ... فيصلك بعد يومين ... وإذا شئت فإنى ألتقى فى فرنسا بعد ذلك بالمسيو « ... » لأعينه على وضع النص الفرنسى ... فما قولك ؟ ...

فتفكر الرجل لحظة ... ثم قال :

ـــ لا أستطيع أن أعدك بشىء ... ينبغى أن أتدبر الأمر مع المصور والمساعدين ... لأرى إذا كان فى الإمكان مباشرة العمل بغير الحوار فى بعض الأجزاء فنتجنب العطلة الطويلة ...

ونهض وانصرف على أن يذهب إلى الريف فى صباح الغد الباكر ...

١٤

مرت الأيام ... ولم يبد لصاحبى المخرج أثر ... ولم يبق غير يومين على رحيل الباخرة التى كنت قد حجزت فيها مكانى ... فلم أقلق ولم أهتم ... فما كان شيء يستطيع أن يحول بينى وبين الخلاص من جحيم الصيف فى القاهرة وقلت فى نفسى : سأحمل مغى قصته وأكتب له من أوربا ، ولعلى أبعث إليه بجزء من الحوار ليطمئن قلبه ... وسافرت فى اليوم التالى إلى الإسكندرية ... ثم أبحرت ... ثم بلغت « لوسرين » حيث حضرت الكونسير الأولى للموسيقى « توسكانينى » وهنا نسيت كل النسيان مصر وشئون مصر ... ولم أذكر سيناريو ... ولا سينما ... ولا مخرجا ولا حواراً ، ونسيت حتى أن أكتب إليه لأخبره برحيلى ومكانى، بل نسيت حتى حمارى « الفيلسوف » وأحواله وأطواره ومرآته وتعاليمه وما يجرى له ... وتركت سويسرا إلى فرنسا ... وتنقلت فى جبال السافوا العليا

وغمرت نفسى فى راحة مطلقة ... وذهنى فى ركود تام . فلم أفتح صحيفة ولم أقرأ كتاباً ... ولم أحرر خطاباً ... ولم أحمل قلماً ولا ورقاً ... وإنما حملت فى يد عصا الجبل ذات الطرف الحديدى ... وفى الأخرى عصا السمك وعلبة الطعم أطوف بهما على البحيرات الصغيرة أحاول عبثاً اصطياد سمكة من تلك الأسماك التى تمر تحت أنفى وتسخر من طعمى ...

وانقلتُ راجعاً إلى مصر قبل شهر سبتمبر ... فوجدت فى انتظارى خطابين مسجلين من محامى الشركة يشيران إلى العقد وأمر تنفيذه ، وإلى التبعة التى نتجت عن التأخير ... فأفقت فى الحال من أحلام الصيف ... وتذكرت كل شىء ... فأخرجت كراسة السيناريو من الحقائب ... ووطنت العزم على العمل ... فقد بعثت الرحلة فى نفسى النشاط ... فأقبلت على مطالعة القصة وأنا أقول لنفسى : « فلأصنع شيئاً على الأقل ثم أتصل بالمخرج ليرى أنى لم أنسه طول الوقت ، ولكن المطالعة ما كانت تزيدنى إلا اقتناعاً بأن هذا العمل مستحيل ... فأشخاص القصة بعيدون عن مشاعرى كل البعد ... فأنا لا أراهم ... ولا أعرفهم ... إنهم غرباء عنى ... كيف يطلب إلىّ أن أضع فى أفواههم كلاماً ، كما يضع طبيب الأسنان

« أطقم ذهبية فى أفواه الناس ؟ ... فطرحت الأوراق يائساً ... ونهضت أكتب إلى المخرج كى يقابلنى ... وأنا أصيح فى الحجرة :

— ينبغى أن أفهم هذا الرجل أخيراً أنى لا أصنع كلاماً لأشخاص ... وإنما أصنع أشخاصاً يتكلمون ! ...

***

كان جو العالم السياسى فى ذلك الحين قد اكفهر اكفهراراً ينذر بالويل ... فقد طغت شهوة الاستعباد فى نفوس شعوب تسمى أنفسها « راقية » فنبذت تعاليم أولئك الذين عرفوا أنفسهم فكشفوا للإنسانية عما فى نفسها من جمال وصفاء ، وسلمت أمورها لأولئك الذين جهلوا أنهم جهلاء فأيقظوا فيها غرائز الجشع والظلم والدماء ...

وما كاد المخرج يعلم وجودى فى القاهرة ، وكانت قد بدأت مجزرة الوحوش البشرية فجاءنى يقول :

— لقد أوقفت الحرب بالضرورة أعمال هذا الشريط وسنرحل بعد أيام ... وأرجو المعذرة للخطابات المسجلة فإن سفرك وانقطاع أخبارك اضطرنا إلى هذا الإجراء لندرأ عنا أمام الشركة مسؤولية التأخير ... فقلت له :

— والعقد الذى بيننا ؟ ...

فأجاب :

— قائم بالطبع لحين استئناف العمل ...

— متى ؟ ...

— بعد الحرب ...

— لقد كنت أفكر فى طلب إلغاء هذا العقد ...

— لماذا ؟ .. لاتيأس بهذه السرعة ... الوقت أمامك الآن متسع للتفكير الطويل والعمل البطىء ، وسنخطرك بالطبع عند الاحتياج إليك ...

وسوى أمرى مع هذه الشركة على هذا الوجه وحل الموقف مؤقتا على الأقل ، هذا الحل غير المنتظر .. واطمأن قلبى كل الاطمئنان ... فقلت لصاحبى المخرج :

— هلم معى إلى مطعم الفندق ... إنى أدعوك للعشاء ...

فقال لى وهو يهبط معى بالمصعد إلى قاعة الطعام فى الطابق الأسفل :

— أرجو ألا يكون عشاء الوداع ...

— أرجو ذلك ...

وجلسنا إلى المائدة فبادرنى قائلا :

ــ عندى لك خبر محزن ...

فالتفت إليه قلقاً :

ــ ماذا ؟ ...

فأجاب فى صوت الآسف :

ــ صديقك « الفيلسوف » ...

فقاطعته :

ــ مات ؟ ...

ــ يوم إبحارك ...

واأسفاه ! لقد كنت نسيته ... إنى ناكث للعهد ... منظره ورزانته وصيامه ... وقلت :

ــ لقد كان جميلا زاهداً حكيما ! ...

فقال المخرج :

ــ لا تحزن سأبعث إليك بصورته التى التقطناها له ...

فقلت كالمخاطب لنفسى :

ــ صورته ! ... نعم أذكر يوم التقطتم له هذه الصورة ...

ثم تخيلته يوم وضع رأسه فى كفى .. كأنه يفكر .. لو أنه كان يفكر مثلنا برأسه .. ذلك الجهاز المحدود التفكير ... آه ، لقد استطاع هذا الفيلسوف الصغير أن يبلغ قمة « الصفاء » ... تلك القمة التى طمع « جوته » فى أن يبلغها يوما ... لقد استطاع هذا الصديق الراحل أن يرى الحياة والموت من ثقب واحدة ... وأن يرى الكائنات المتحركة والجامدة من عين واحدة وأن يخترق الكون كله بجسمه الصغير النحيل فى يومين ويمضى دون أن يتوهم أنه زعيم خطير أو مفكر بصير .. إن هذا الشيء الحقير الذى سميناه جحشا هو فى نظر « الحقيقة العليا » مخلوق يثير الاحترام ... فى حين أن كثيراً ممن سميناهم زعماء وعظماء فركبوه ، ولم يبصروا الغرور وهو يركب رؤوسهم ، هم فى نظر « الحقيقة العليا » مخلوقات تثير السخرية ! ... نعم كنت أشعر دائما شعوراً غامضاً أن حبى لهذا الجحش هو حب مقترن بشيء آخر غير العطف والإشفاق ... إنه التقدير والتبجيل ... أحمد الله أنه مات قبل أن يكبر فيُركب .. إنى كنت أخجل من ذلك ولا ريب ... لأنى كنت أسمع فى كل خطوة من خطواته المتزنة همسات تتصاعد من أعماق نفسه التى فى عمق

المحيط :

أيها الزمان ! ... أيها الزمان ! ...

متى تنصف أيها الزمان فأركب ...

فأنا جاهل بسيط ، أما صاحبى فجاهل مركب !! ...

رقم الإيداع ٤٨٢٠/١٩٩٠
الترقيم الدولى : × ـ ٠٥٩٩ ـ ١١ ـ ٩٧٧









الثمن ٣٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه